مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، المجلد ٢١ (١)، ٢٠٠٧

صورة الأمير يوسف بن تاشفين في أدب الرّسائل في عهديّ الطّوائف والمرابطين

The Image of Prince Yousef Bin Tashafin in the Treatises Literatures in the Ages of Tawaif and Murabitin

رائد عبد الرّحيم

Raed Abdel-Raheem

قسم اللغة العربية، كلية التربية ، جامعة البنات، منطقة الرياض، المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني: *rarrabeh@yahoo.com*

تاريخ التسليم: (١٧/٨/٢٠٠٥)، *تاريخ القبول*: (٢٩/٨/٢٠٠٦)

ملخّص

الأمير يوسف بن تاشفين قائد له أثره العظيم في التاريخ الإسلامي بعامّة، وتاريخ المغرب والأندلس بخاصّة، إذ استطاع بحنكته السّياسيّة، وصفاته التي تحلّى بها أن ينقذ المسلمين في الأندلس من أعدائهم، ومن جور حكّامهم، فوّحدهم، ووحّد بلادهم، وأوقف مدّ النّصارى بقيادة الأذفونش، الذي كان يظنّ أنّ المسلمين وبلادهم طوع أمره، ورهن إشارته. ولهذا كلّه أحبّه المسلمون، ونظروا إليه نظرة إجلالٍ وإكبار، وعدّوه المخلّص لهم من حياة الظّلم والخوف التي كانوا يحيونها. فمجّده أدباؤهم، وقالوا فيه، وفي إنجازاته أدباً كثيراً. وعلى الرّغم من ذلك لا توجَد دراسةٌ علميّةٌ شاملةٌ مستقلّةٌ تناولت صورته من جوانبها المختلفة في ذلك الأدب. من هنا جاء هذا البحث ليبيّن تلك الصّورة في فنّ الرّسائل في عهديّ الطّوائف والمرابطين. وقد انتظم عقده في تمهيد وستّة عناوين، وهي: دواعي الاستنجاد بابن تاشفين، وصفاته، ومنهجه في الحكم وإدارة البلاد، وشرعيّة حكمه الأندلس، وأسباب خلعه ملوك الطّوائف، وعلاقاته، وجيش بن تاشفين.

Abstract

Prince Yousef Bin Tashfin is a leader of great effect in the Islamic history in general and that of Morocco and Andalusia history in particular he could by his political affair and characteristics to rescue Muslims of Andalusia from their foes and from the despotism of their rulers. He united them and their countries and stopped Christian movements under Al-Fonso, who thought that Muslims and their territory was under his order and peck and dominance. For all of that Muslims liked him and looked upon him with admiration and high consideration, and reckoned him as the savor and rescuer who could make them get rid of injustice, fear full life. They succumbed under it. Their men of letters glorified him and said too much praising his deeds and achievements. Despite that there is no comprehensive academic study about his image from different aspects in literature, from this point this research has emerged to pin point that image of artful treaties in the age Tawaif and Murabiteen, included in an introduction and six chapters as follows: - Reason for asking help from Bin Tashafin. - His characteristics. -His method in governance and country administration. - Legality (legitimacy) of his governance to Andalusia and reasons that led him to depose Al-Tawaif kings. - His relationship. -His army.

تمهيد

أدت الفتنة التي شهدتها الأندلس في أواخر الخلافة الأموية إلى استقلال أمراء الممالك الأندلسية بالبلاد التي تحت سيطرتهم، فأضحوا "يتباهون في أحوال الملك"، و يترفّعون" إلى طبقات السلطة العظمى"(١)، ويتفاخرون في الألقاب، وينعتون أنفسهم بنعوت الخلفاء "من معتمد، ومعتضد، ومرتض، وموفق، ومستكف، ومستظهر، ومستعين، ومنصور، وناصر، ومتوكّل "(٢) وغيرها. وقد جعل هذا الأمر بعض شعراء الأندلس، وهو أبو الحسن ابن رشيق، يكره الإقامة فيها، ويتململ من أحوالها إذ قال(٣):

مما يزهّدني في أرض أندلسٍ   أسماءُ معتضدٍ فيها ومعتمد

ألقاب مملكةٍ في غير موضعها كالهرّ يحكي انتفاخاً صورة الأسد

إن شهوة الملك، وحبّ السيطرة والاستبداد، والحسد، والطمع، ونظام الحكم الوراثي، هذه الأسباب مجتمعة، دفعت ملوك الطوائف إلى التباغض والتناحر، والاصطدام في ساحات الوغى في حروب استعر أوارها، وكان وقودَها المسلمون. وقد أكثرت كتب التاريخ التي أرّخت تلك الفترة من الحديث عن حالة العداوة تلك(٤). وبلغ الأمر شأوه حين أقدم الأب منهم على قتل ابنه، والأخ على سجن أخيه، والتّنكيل به، وهذا ما فعله المعتضد بن عبّاد سنة ٤٤٩ هجرية حين قتل ابنه الذي همّ بغدره(٥)، وأَخذ مكانه. وهو ما قام به أحمد بن سليمان بن هود حاكم سَرَقُسطة إذ احتال على إخوته، فأخرجهم من مدنهم التي كانوا يحكمونها "وسَجَنهم وكحّل بالنار بعضهم"(٦).

واستعان أغلب ملوك الأندلس آنذاك بملوك النصارى في ليون وقشتالة وغيرها، ودفعوا لهم الجزية، لينصروهم على أبناء ملّتهم، وهذا ما عبّر عنه الأديب أبو بكر ابن القصيرة في إحدى رسائله إذ قال: إن "أكثر ملوك هذا الأقليم، كانوا يداخلون طوائف الروم، ويكتري كلّ واحد منهم عسكرا بجملة من المال، يخرجه إلى بلد كاشحه، ويسلّطه على معانده ممّن يجاوره من البلاد، حسدا له، وطمعاً في بلده أن يصير طوع يده، فكانت نيران الفتنة بينهم مشتعلة"(٧).

لقد وجد ملوك النصارى هذا الوضع فرصة مواتية لهم لتحقيق أطماعهم، فاستغلوه، وراحوا يضربون المسلمين بعضهم ببعض، ويغذّون نار الفتنة المشتعلة بينهم. كي يضعفوهم، ويظلّ ملوك الطوائف محتاجين إليهم. حتى إذا أرهقوهم في دفع الجزية، ولمسوا منهم وهناً وتخاذلا، ملّوا تلك الجزية، وتطلّعت عيونهم إلى بلاد المسلمين، ولم يقتنعوا إلاّ بأخذها، وانتزاعها من أيديهم(٨). وقد وصف الأمير عبد الله بن بلقّين هذه السياسة التي انتهجها حكّام النصارى في قوله متحدّثا عن أحدهم، وهو ألفونسو السادس أو ألفونش: "كان مذهبه ألاّ ينازل مَعقلا، ولا يُفسد أجناده على مدينة، لبعد مراميها، ومن فيها من مخالفي ملّته، وإنما كان يأخذ منها الجزية عاماً بعد عام، ويعنّف عليها ما شاء من أصناف التّعدّي إلى أن تضعف، وتُلقي بيدها"(٩).

أفاق المسلمون في الأندلس في عصر الطوائف على وقع سنابك خيل العدوّ، تدكّ بعض مدنهم وحصونهم، وتستولي على بعضها الآخر، فقد أخذوا سنة ٤٥٦ هجرية مدينتي قُلُمْرِية وبَرْبَشتر التي أعادها أحمد بن سليمان بن هود إلى حوزة المسلمين(١٠). كما احتلوا قورية وسَرِتة، وعدّة حصون وقلاع " كلّها في غاية من الحصانة والامتناع"(١١)، وانتزع ألفونسو السادس مدينة طليطلة سنة ٤٧٨ هجرية بعد حصار دام سبعة شهور(١٢). هذه المصيبة أصابت المسلمين في الأندلس بالذهول، فمدينة طليطلة كانت عظيمة عندهم، وهي واسطة عقد الأندلس، فأخذوا يتنبّهون للخطر المحيط بهم، الذي يهدف إلى استئصال شأفتهم، والسيطرة على أرضهم، ونهب أموالهم. من هنا أكثروا من إنتاج الأدب المعبّر عن هول المأساة، والأدب المقاوم الدّاعي إلى الوحدة، ورصّ الصفوف في مواجهة العدو(١٣). وتطلّعت عيونهم، وعيون ملوكهم إلى مخلّص، ينقذهم من واقع الذلّ والهوان، فوجدوا أمامهم دولة المرابطين الفتية في المغرب، بقيادة يوسف بن تاشفين، الذي أقام دولته على أساس ديني متين، وذاع صيته، واشتُهر بشجاعته، وحسن سيرته، ورغبته في الجهاد. "فكاتبه أهل الأندلس كافةً الخاصة والعامة، يستصرخونه في تنفيس العدو عن مخنقهم، ويكونوا يداً واحدة عليه"(١٤). وقد وصف الحميري توافد أهل الأندلس على ابن تاشفين، واستنجادهم به، فقال: "وكان يوسف بن تاشفين لاتزال تفد عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين، مجهشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته، فكان يصغي إلى قولهم، وترقّ نفسه لهم"(١٥).

أما ملوك الطوائف، فراسلوا بعضهم بعضاً في شأن هذا القائد، فأجمعوا على طلب العون منه، "وكان مفزعهم في ذلك إلى المعتمد بن عبّاد لأنّه أشجع القوم، وأكبرهم مملكة"(١٦). أضف إلى ذلك أن المعتمد كان أكثرهم إلحاحاً في هذا الأمر، إذ خاطبهم غير مرّة يحثّهم على الوحدة، والاستعانة بالمرابطين(١٧). ومقولته مشهورة حين حذّره ابنه من أن يفضي الأمر أخيراً إلى سيطرة ابن تاشفين على الأندلس. فأجابه: "رعي الإبل خير من رعي الخنازير"(١٨)

وقد وقعت حادثة، جعلت رغبة المعتمد جامحة في التوجّه إلى ابن تاشفين، وهي أنه ذات مرّة قدم إليه ابن شاليب أوشلبيب اليهودي ليأخذ منه الجزية، فأخرجها المعتمد لـه، ولكنّ الأخير رفضها، وهدّده بأخذ الأرض والبلاد الخاضعة لسيطرته. فما كان من المعتمد إلاّ أن ضربه بمحبرة كانت بيده على رأسه، فأنزل دماغه، ثمّ صلبه(١٩). فلمّا بلغ ألفونسو الخبر، عظم" الأمر عليه، وأقسم ألاّ يرفع عقالا عن ابن عبّاد"(٢٠).

وتذكر كتب التاريخ غير رواية، تتعلّق بكيفية استنجاد المعتمد بالمرابطين، ويمكن إجمالها فيما يلي:

الرواية الأولى: تذكر أن المعتمد جمع عدداً من قضاة الأندلس، وأرسلهم إلى العدوة بصحبة وزيره أبي بكر ابن زيدون، و"أسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف، وترغيبه في الجهاد. وأسند إلى ابن زيدون ما لابدّ منه في تلك السفارة من إبرام العقود السلطانيّة"(٢١).

الرواية الثانية: تحدّثت عن أن المعتمد " ركب البحر، وسار إلى العدوة لاستجلاب يوسف بن تاشفين، فلقيه مقبلا لبلاد طنجة.....، فأخبره بحال الأندلس، وما هي عليه من شدّة الخوف والضعف والاضطراب، وما يلقاه المسلمون بها من القتل والأسر والحصار من ألفونسو السادس وجنوده، وأنه عزم على سقوط سَرَقُسطة، فقال له الأمير يوسف رحمه الله: ارجع إلى بلدك، وخذ في أمرك، فإنّي قادم عليك في إثرك إن شاء الله تعالى". وأمره أن يخلي له الجزيرة الخضراء، لتكون نقطة تجمّع لقوّاته(٢٢).

الرواية الثالثة: ترى أن المراسلات بين المعتمد وابن تاشفين كانت قبل سقوط طُليطلة. فصاحب الأنيس المطرب يروي أنّه في سنة ٤٧٤ هجرية، ورد على يوسف بن تاشفين" كتاب المعتمد بن عبّاد يعلمه بحال الأندلس، وما آل إليه أمرها من تغلّب العدو على أكثر ثغورها وبلادها، وسأله نصرها، وإعانتها. فأجابه يوسف: إذا فتح الله لي سبتة، وصلت بكم، فبذلت في جهاد العدو المجهود"(٢٣).

جاز ابن تاشفين بجيشه البحر، ونزلوا في الجزيرة الخضراء، ثم اتّجهوا إلى لقاء ألفونسو السادس، وقدّموا أمامهم " المعتمد بن عبّاد مع أمراء الأندلس وجيوشهم، منهم ابن صُمادح صاحب المريّة، وابن حبّوس صاحب غرناطة، وابن مَسلمة صاحب الثغر الأعلى، وابن ذي النون، وابن الأفطس، وغيرهم"[٢٤]، واجتمعوا قرب بَطَليوس في موضع يعرف بالزلاّقة. التقى الجمعان الإسلامي والصليبي يوم الجمعة من سنة ٤٧٩ هجرية، فهُزم العدو هزيمة منكرة، وقتل عدد كبير من جنوده، ونجا ألفونسو في عدد قليل من فرسانه مثخناً بجراحه التي أُصيب بها. وعقب الوقعة أمر ابن تاشفين برؤوس القتلى من جيش العدو، ففصلت عن أجسادها، وفرّقت على مدن الأندلس والعدوة[٢٥].

كان لهذا النصر نتائج مهمّة، فقد أكدّ للمسلمين أن تشرذمهم، وتناحرهم هو سبب هزيمتهم، وظهور العدو عليهم، وأن وحدتهم، ورغبتهم في الجهاد هي عوامل نصرهم وظفرهم. ولعلّ هذه الوحدة التي تجلّت بين المسلمين قبل هذه المعركة هي من أقوى أسباب نصرهم فيها. ويؤكد ذلك الصورة المشرقة التي رسمها الأمير عبدالله بن بلقّين للتكاتف والتلاحم بين ملوك الأندلس والأمير يوسف قبل بدء القتال إذ قال في سيرته: "والعجب في تلك السفرة من حسن النيّات، وإخلاص الضمائر، كأن القلوب إنما جُمعت على ذلك، ولقينا أمير المسلمين في طريقه إلى بَطَليوس بجريشة، ورأينا من إكرامه لنا وتحفّيه بنا ما زادنا ذلك فيه رغبة، لو استطعنا أن نمنحه لحومنا، فضلا على أموالنا، ولقينا المتوكّل بن الأفطس محتفلا بعسكره: كلّ يُرغّب في الجهاد، وقد أعمل جهده، ووطّن على الموت نفسه"[٢٦].

ومن نتائجها أن تأخّر سقوط الأندلس، وانقطع أمل ألفونسو في السيطرة عليها " بعد أن كان يُقدّر أنها ملكه، وأن رؤوسها خدم له"[٢٧]. وأنعش هذا النصر آمال المسلمين، وقوّى نفوذهم، وشدّ عزائمهم، "ووفّر عليهم الكثير من الأموال التي كانوا يدفعونها جزية"[٢٨]. وزاد من مكانة ابن تاشفين في قلوب أهل الأندلس وعقولهم، فأكثروا الثناء عليه، والدعاء له" في المساجد وعلى المنابر[٢٩].

إن هذا التآلف بين ملوك الطوائف لم يدم طويلا، فقد عادوا إلى سيرتهم الآولى، فـأيقن ابن تاشفين عندها أن لافائدة منهم، فاتّخذ قرارا حاسما بخلعهم، وبتوحيد الأرض والإنسان في الأندلس. وهنا يتحدّث المؤرخون عن غير سبب حدا بابن تاشفين إلى تلك الخطوة وهي:

إحجام أغلب ملوك الأندلس عن مساعدته، وتقديم العون له حين جـاز جـوازه الثـاني والثالث إلى الأندلس لجهاد العدو المتحصّن في حصن ليّيط وطُليطلـة[٣٠]. وعـودتهم إلـى مداخلة النصارى، والاستعانة بهم[٣١]، ورغبة أهل الأندلس في التخلّص منهم بعد أن عـانوا مرارة ظلمهم، ولهذا نراهم عندما كان ابن تاشفين يهاجم مدنهم، كانوا يقفون في صـفّه ضـدّ ملوكهم، ويعاونونه على فتحها[٣٢].أضف إلى ذلك رغبة ابن تاشفين في جهاد العدو، وصدور فتاوي فقهاء المغرب بخلع حكّام الأندلس وانتزاع الأمر منهم[٣٣]، هذا فضلاً عـن الفتـاوي التي وردت إليه من أعلام فقهاء المشرق " أمثال الغزالي والطرطوشي وغيرهما"[٣٤].

ويذهب بعض المؤرخين، وبخاصة عبد الواحد المراكشي إلى أن الطمع كان حافز ابـن تاشفين الأول للاستيلاء على الأندلس، وخلع ملوكها، ويؤكدّون أنه بعد أن جاز البحر، ورأى ما في الأندلس من حسن وجمال، ومظاهر حضارة ومدنيّة، وخير عميم، عقد العـزم علـى ضمّها إلى ملكه توسيعاً له. ولهذا أبقى هو وأصحابه على جيشهم وأتباعهم مبثوثين فيها حتى إذا "كان أمر من قيام بدعوتهم، أو إظهار لمملكتهم، وجدوا في كلّ بلد لهم عوناً"[٣٥].

ويردّ الناصري على القائلين بهذا الرأي، ويبيّن أنه محض افتراء إذ قال: "واعلم أنه قد يوجد لبعض المؤرخين حطّ من رتبة أمير المسلمين، وغضّ عليه. إما في كونه كان بربريا من أهل الصحراء، بعيدا عن مناحي الملك والأدب ورقّة الحاشية، وإمّا في كونه تحامل على ملوك الأندلس حتى فعل بهم ما فعل، وذلك حين عاين حسن بلادهم، ورفاهية عيشهم. واعلم أن هذا كلام جدير بالردّ، وأصله من بعض أدباء الأندلس الـذين كـانوا ينـادمون ملوكهـا، ويستظلّون بظلّهم، ويغدون ويروحون في نعمهم، فحين فعل أمير المسلمين بسادتهم ورؤسائهم ما فعل، أَخَذهم من ذلك ما يأخذ النفوس البشرية من الذبّ عن الصديق، والمحاماة عن القريب

حتى باللسان، وإلاّ فقد كان أمير المسلمين رحمه الله من الدين والورع على ما قد علمت، ومن تحرّي الجادة، وركوب طريق الحقّ"[٣٦].

ويؤيد ما ذهب إليه الناصري غير أمر وموقف منها:

أولاً: صفات ابن تاشفين التي أجمع على فضلها المؤرخون، فقد ذكروا أنه كان "خائفا لربّه، كتوما لسرّه، كثير الدّعاء والاستخارة، مقبلا على الصلاة ...، يواصل الفقهاء، ويعظّم العلماء، ويصرف الأمور إليهم، ويأخذ بآرائهم، ويقضي على نفسه وغيره بفتياهم، ويحضّ على العدل، ويصدع بالحقّ، ويعضّد الشرع، ويحزم بالمال، ويولع بالاقتصاد في الملبس والمطعم والمسكن"[٣٧]. "وكان مع ذلك حسن الأخلاق، كثير الحياء، جامعاً لخصال الفضل"[٣٨].

ثانياً: أن ابن تاشفين لم يبادر بنفسه إلى التدخّل في شؤون الأندلس إلاّ بعد أن إستنجده أهلها، وكثرت عليه رسائلهم، ووفد إليه منهم الملوك والعلماء والفقهاء والأدباء.

ثالثاً: إن مواقف ابن تاشفين بعد جوازه البحر إلى الأندلس تؤكّد رغبته في الجهاد، وتوحيد المسلمين، ومعاونتهم، فقبل واقعة الزلاّقة، "عرض عليه المعتمد أن يدخل إشبيلية. .. ليستريح فيها أيّاما حتى يزول عنه وعثاء السفر، ثم يقصد مقصده، فأبى عليه، وقال: إنما جئت ناوياً جهاد العدو، فحيثما كان العدو توجّهت إليه"[٣٩]. وعقب انتصار المسلمين، وهزيمة العدو، جُمعت الغنائم، فعفّ ابن تاشفين عنها، وآثر بها ملوك الأندلس[٤٠]. وقبل مغادرته الأندلس لم يبخل عليهم بالنصح. يذكر الأمير عبد الله بن بلقّين في سيرته: "ولمّا انقضت غزوته تلك، جَمَعنا في مجلسه، أعني رؤساء الأندلس، وأمرنا بالاتّفاق والائتلاف وأن تكون الكلمة واحدة، وأن النصارى لم تفترصنا إلاّ للذي كان من تشتّتنا، واستعانة البعض بهم على البعض، فأجابه الكلّ أن وصيته مقبولة، وأن ظهوره ممّا يجمع الكلّ على الطاعة، والجري على الحقيقة"[٤١].

رابعاً: أن ابن تاشفين حين كتب إلى قائد جيشه في الأندلس سير بن أبي بكر يأمره "بإخراج ملوك الأندلس من بلادهم، وإلحاقهم بالعدوة، " طلب إليه أن يبدأ بمجاوري الثغور منهم"(٤٢). وهذا يدلّ على حنكة رجل تهمّه مصالح المسلمين، فقد خشي أن يلجأ أولئك إلى الاستعانة بالنصارى، ومن ثَمّ وقوع تلك البلاد في قبضة العدو، فتكون خسارة المسلمين كبيرة.

إن رجلا تلك صفاته وأفعاله، لا يمكن أن يكون الطمع هو محرّكه لغزو الأندلس، وإقصاء ملوكها عن الحكم.

بدأ سير بن أبي بكر سنة ٤٨٣ هجرية بخلع ملوك الطوائف، فسار أوّلا "إلى غرناطة، واستنزل صاحبها عبد الله بن بلقّين وأخاه تميما عن مالقة"، ثم هاجم بني طاهر شرق الأندلس، فسلّموا إليه، ولحقوا بالعدوة، ثم نازل بني صُمادح بالمريّة، ففرّ حاكمها، واستولى سير عليها، ثم حاصر إشبيلية واقتحمها، وأسر المعتمد واقتاده مقيّداً إلى سجن أغمات في العدوة، فبقي فيه إلى أن مات. ثم نازل بَطَلْيوس، فألقى القبض على المتوكّل عمربن الأفطس وأولاده، وقتلهم أواخر سنة ٤٨٨ هجرية(٤٣). وفي سنة ٤٩٣ هجرية جاز الأمير يحيى بن أبي بكر بن تاشفين إلى الأندلس "وانضم إليه محمد بن الحاج، وسير بن أبي بكر، فافتتحوا عامة الأندلس من أيدي ملوك الطوائف، ولم يبق منها إلاّ سَرَقُسطة في يد المستعين بن هود"(٤٤)، ذلك أن الأخير" لم يزل يُهادي أمير المسلمين قبل أن يقصد بلاد الأندلس ويملكها، ويواصله، ويكثر مراسلته، فرعى له ذلك"(٤٥).

وهكذا انقرضت دول الطوائف، وأضحت الأندلس موحّدة تحت حكم المرابطين، عمل فيها الأمير يوسف على نشر العدل، ورفع الظلم، وتطهير البلاد من مفاسد من سبقوه، كما واصل جهاده، ووقف سدّا منيعا أمام أحلام النصارى في امتلاك الأندلس، وظلّت تلك حاله إلى أن لقي ربّه سنة ٥٠٠ هجرية.

وتجدر الإشارة في هذا المقام أن عهد ابن تاشفين في الأندلس شهد حدثاً جللاً، اهتزت له أركانها، فقد أقدم النورمانديون أو الأردمانيون بقيادة السيد الكنبيطور على مهاجمة مدينة

بلنسية، فاستولوا عليها سنة ٤٨٧ هجرية، وساموا أهلها سوء العذاب، وأحرقوا متولّي أمرها القاضي أبا المطرف جعفر بن الجحّاف. ظلّت تلك المدينة خاضعة لهم مدة ثماني سنوات، وشهر ونصف إلى أن أعادها المرابطون إلى حوزة المسلمين[٤٦].

دواعي الاستنجاد بابن تاشفين

يصوّر أدب الرسائل في عهدي الطّوائف والمرابطين الأسباب التي دعت أهل الأندلس، وبعض ملوكها إلى الاستنجاد بالأمير يوسف بن تاشفين، وطلب يد العون منه.

وهذه الرّسائل أنواع: نوع كتبه الأدباء، والحكّام، وأهل الأندلس، وبعثوه إلى ابن تاشفين. وآخر أنشأه الأدباء عقب الإنجازات الكبرى التي حقّقها ابن تاشفين، وبخاصة انتصاراته على النصارى، وخلعه ملوك الطّوائف. ونوع ثالث صدر عن ديوان رسائل المرابطين في عهد أمير المسلمين.

وتتميّز هذه الرّسائل، وبخاصّة التي أُرسلت إلى ابن تاشفين بتنوّع أساليبها، وقدرتها على التأثير في نفسه وعقله، كي يهبّ إلى الأندلس، ويذبّ عن حماها والدّوافع التي كانت وراء الاستنجاد بابن تاشفين، كما يصوّرها فنّ الرسائل، منها ما هو مختصٌّ بالأندلس، وأهلها، وملوكها، ومنها ما يتعلّق بشخصيّة الأمير يوسف.

أوّلاً: الأسباب المتعلّقة بالأندلس

لقد تناول الكتّاب أوضاع الأندلس السياسية والاجتماعية في عهد ملوك الطوائف، فصوّروا الخلاف والتدابر الذي كان عليه المسلمون وملوكهم هناك، ففي سنة ٤٧٨ هجرية، كتب المعتمد بن عبّاد رسالة إلى الأمير يوسف بن تاشفين، يطلب إليه الجواز إلى الأندلس لجهاد النّصارى. ويذكر فيها الأسباب التي دفعته إلى ذلك، وهي تفرّق الكلمة، وانشقاق الصّفوف، حتى أضحى الشعب المسلم في الأندلس شعوباً لارابطة بينها، وأضحت بلادهم مطمعاً لملوك النّصارى، وعلى رأسهم الأذفونش أو ألفونسو السادس، الذي استغل هذا

الخلاف والتباغض والتدابر، فراح يستولي على بعض المدن، وعلى بعض القلاع والحصون. ثمّ يقدّم الكاتب صورتين متناقضتين، تبالغ الآولى في تصوير بأس الأذفونش وسطوته. أمـا الثانية، فتعبّر عن ضعف المسلمين، وقلّة حيلتهم أمام ذلك الملك. ويعزو المعتمد هذا الضّعف إلى حرص حكّام الأندلس على الماء والهواء على حدّ تعبيره. وهو أسلوب ساخر قُـصِدَ بـه تعرية أولئك الملوك، ووصف تكالبهم على الدّنيا وحطامها، دون أدنى مسؤوليّة، أو التفات إلى مصالح المسلمين، يقول: (من إشبيليّة غرّة جُمادى الأولى سنة ٤٧٨ هجرية، وأنّـه أيّـدَ الله أميرَ المسلمين، ونَصَرَ به الدّينَ، فإنّا نحن العرب في هذه الأندلس، قد تَلِفَتْ قبائلُنـا، وتَفـرَّقَ جمعُنا، وتغيَّرتْ أنسابُنا بقطع المادّةِ عنّا من معيننا، فصرنا شعوباً لا قبائلَ، وأشتاتاً لا قرابةَ، ولا عشائر، فقلَّ وكَثُرَ شامتنا، وتَوالى علينا هذا العدوّ المجرمُ اللّعينُ أذفـنشُ، وأنـاخ علينـا بِكَلْكَلِه، ووطِئنا بقدمه، وأسر المسلمين، وأخذ البلادَ والقلاعَ والحصونَ، ونحـن أهـل هـذه الأندلسِ ليس لأحدٍ منّا طاقةٌ على نُصرةِ جاره، ولا أخيه، ولو شـاءوا لَفَعَلـوا إلاّ أنّ المـاءَ والهواءَ منعهم عن ذلك، وقد ساءت الأحوالُ، وانقطعت الآمالُ.....)(٤٧).

ويعبّر أبو بكر ابن القصيرة(٤٨) عن المعاني السابقة في رسـالة كتبهـا إثـر انتـصار المسلمين في واقعة الزّلاّقة، وتحدّث فيها عن حاجة الأندلس إلى الأمير ابن تاشفين قبل تلـك الوقعة: (وقد عَلِمَ ما كنّا قبل مع عدوِّ اللهِ أذفونش بن فِرْدِلَنـد، قَـصَمَهُ اللهُ، مـن تَطأطُؤنـا واستعلائه، وتقامُئنا وانتخائه، وإنّا لم نجد لدائهِ دواءً، ولا لبلائهِ انقضاءً، ولا لمدّةِ الامتحان به فناء...)(٤٩).ويصوّر ابن القصيرة في الرسالة ذاتها الحالة النفسيّة التي أضحى عليهـا أهـل الأندلس، وهم يرون هذا المدّ النصراني الزاحف إليهم، يهدف إلى استئصال شأفتهم، وابـتلاع أراضيهم، دون أن يلاقوا رادعاً يردعهم، أويقف في طريقهم، الأمر الـذي اضـطرّهم إلـى الاستنجاد بابن تاشفين، يقول: (لأنّ النصارى لمّا اطّلَعوا علـى عـوراتهم، يعنـي ملـوك الطوائف، زحفوا بطوائفهم إليهم، ولمّا لم يبقَ إلاّ نفسٌ خافتٌ، ورَمَقٌ زاهقٌ، ورأى المسلمون أنهم بالجزيرة على طَرَف، وفي سبيلِ تمامٍ وتلف، استصرخوا أمير المسلمين، وناصر الدّينِ، أبا يعقوب يوسف بن تاشفين، رحمه اللهُ، . ..)(٥٠).

ويرسل المتوكِّل بن الأفطس حاكم بَطَلْيوس رسالة إلى الأمير يوسف، كتبها عنه الأديب أبو عبدالله بن أيمن[٥١]، يصف فيها أحوال ملوك الطوائف وقعودهم عن الجهاد، ويتّخذ من سقوط مدينتي قورية وسُرية بيد النصارى سبباً للاستغاثة بابن تاشفين، ويصوّرمحاسن مدينة سُرية ومنعتها، كي يؤثر في نفسية الأمير، ويبيّن له الخسارة الكبيرة التي مُني بها المسلمون، ثمّ يحثّه على إدراك الأندلس وحمايتها من أن تقع فريسة في يد المعتدين، ويحذّره التباطؤ في إنجاز هذا الأمر، (ومِن قبل هذا، ما كنت خاطبتُكَ. ... بالنازلة في مدينة قوريَة، أعادها الله إلى الإسلامِ، وأنها مُؤذِنةٌ للجزيرة بالخلاء، ولمن فيها من المسلمين بالجلاء، ثمّ ما زال ذلك التخاذل والتدابر يتزايد، حتّى تَخَلَّطت القضيَّةُ، وتضاعفت البليَّةُ، وتَحَصَّلتْ بيد العدوِّ مدينة سُرْية، وعليها قلعةٌ تجاوزتْ حدَّ القلاعِ، في التَّحصُّنِ والامتناع، وهي من المدينة كنقطة الدَّائرة، تُدرِكها من جميع نواحيها....، وما هو إلاّ نفسٌ خافتٌ، ورَمَقٌ زاهقٌ، استولى عليه عدوٌّ مشترَكٌ، وطاغيةٌ منافق، إن لم تُدركوها بجماعتكم عِجالاً، وتبادروا ركباناً ورجالاً، وتنفروا نحوها خِفافاً وثقالاً....)[٥٢].

وتحدّث الفقيه المسلم محمّد بن محمد الغزالي في رسالة كتبها إلى ابن تاشفين عن الأوضاع المتردّية في الأندلس في عهد ملوك الطوائف، التي أبرزت حاجة أهلها الملحّة إلى استصراخ الأمير يوسف، واستنهاضه للدفاع عنهم، والأخذ بأيديهم إلى برّ الأمان. هذه الأوضاع أخبره بها المتصوِّف الأندلسي ابن عربي حين زار العراق، وأفصح فيها عن مأساة الأندلس وأهلها، ولا يختلف ما جاء في رسالته عمّا تناولته الرسائل السابقة، فقد وصف فيها معاناة المسلمين في الأندلس، والنزاع الدّائر بين ملوكها، وأضاف إليها الحديث عن نزعة الحقد والانتقام التي جعلتهم يستعينون بالنصارى لإطفائها، فجلبوهم إلى ديارهم، لقاء جزية يدفعونها إليهم، حتى إذا اكتفى النصارى بما نهبوه من أموالٍ، طمعوا في الأرض، فراحوا يستولون عليها، وعلى الإنسان، يقول: (ولم يزل يُطنب، يعني ابن عربي، في ذكْرِ ما كان عليه المسلمون في جزيرة الأندلس من الذلّ والصَّغار، والحرب والاستصغار، بسبب استيلاء أهل الشرك، وامتداد أيديهم إلى أهل الإسلام بالسَّبي والقتل والنَّهب، وتطرُّقهم إلى اهتضام أهل الإسلام بما حدث بينهم مِنْ تفرُّق الكلمةِ، واختلاف آراء الثُّوَّار المحاولين الاستبداد

بالإمارة، وتقاتلهم على ذلك، حتى اختطف من بينهم حُماة الرِّجال بطول القتال والمحاربة والمنافسةِ، وإفضاء الأمر بهم إلى الاستنجاد بالنصارى حرصاً على الانتقام إلى أن أوطنوهم بَيْضةَ الإسلامِ، وكشفوا إليهم الأسرار حتى أشرفوا على التَّهايم والأغوار، فرتَّبوا عليهم الجزا، وجَبَروهم بشرٍّ الجزا، ولمّا استنفدوا الأموال، أخذوا في نهب المناهلِ، وتحصيل المعاقل، واستصرخ المسلمون عند ذلك بالأمير ناصر الدِّين، وجامعِ كلمةِ المسلمين، وظهير أمير المؤمنين، ابن عمِّ سيِّد المرسلين، صلوات الله عليه وعليهم، واستصرخه معهم بعض الثُّوَّار المذكورين على مداراة المشركين)(٥٣).

أما يوسف بن تاشفين، فكتب رسالة عقب واقعة الزَّلاّقة إلى تميم بن المعزّ بن باديس في المهديَّة، أجملَ فيها الأسباب التي حفزته على عبور البحر لمساندة الشعب المسلم في الأندلس وحكَّامها، وهي خطاباتهم المتكرِّرة، واستغاثاتهم المستمرّة، وبخاصّة المعتمد بن عباد ملك إشبيلية، وما نزل بهم على أيدي النصارى من ذلٍّ ومهانة، واستباحةٍ للأرض والإنسان والأموال، هذا فضلاً عن أخذ الجزية، والتهديد والوعيد، والتمادي في العبث والطُّغيان، وغياب مَنْ يُوقِفُ مدَّهم، أو مَنْ يُجبرهم على التراجع، ولاننسى حرصَ الأميرِ يوسف على المسلمين وأرضهم (ولمَّا بَلَغَنا من استحواذ النَّصارى، دمَّرهم الله، على الأندلس، وإلزامِ الجزيةِ لرؤسائهم، واستئصال أقالمها، وإيطائهم البلادَ داراً داراً، ولا يتَخوَّفون عسكراً يخرجُ إليهم، فيُبدِّدُ جمعَهم، ويفلُّ حدَّهم، وهم مع ذلك كانوا يقتلونَ الشِّيبَ والشُّبَّانَ، ويأسرون النِّساء والصّبيان، فخوطبنا عن الجواز إلى الأندلس من جميع الأحواز، المرَّةَ بعد المرَّةِ، وألوتنا الأعذارُ إلى وقت الأقدارِ، ولم نجد للجواز باباً، ولا لدخول البحرِ أسباباً، فانضمَّ لنا منهم الرَّيِّس الأجلُّ المعتمد على الله، المُوَلّى بنصر الله، أحسنَ الله له في كلِّ الأمورِ عونَهُ، وأقرَّ بكلِّ صالحةٍ عينَهُ، فعزمنا على الغزو...)(٥٤).

إنّ هذه الخطابات التي لا تنقطع من أغلب الأمصار الأندلسية، تدلُّ دلالة كبيرة على الصورة التي كان الأندلسيون يرسمونها لابن تاشفين في عقولهم، وهي صورة المنقذ أو

المخلّص الذي ينتظره المظلومونَ بفارغ الصَّبرِ ليرفع عن كاهلهم الظُّلم والجور، ويردَّ عنهم العدوان.

ثانياً: أسباب تتعلَّق بابن تاشفين

وتناولت بعض الرَّسائل دوافع تتعلَّق بشخصيّة ابن تاشفين نفسه، شجَّعت المسلمين والحكّام في الأندلس على مناشدته ومخاطبته، واستصراخه، وجعلتهم يفيئون إلى ظلِّه. ومنها ما جاء في فقرة سابقة إذ نظروا إليه على أنَّه المنقذ والمُخلِّص، والنور الذي يسطع في الظّلام الذي كانوا يحيونه. وقد جاهر الكتَّابُ بهذه الفكرة، وصرَّحوا بها في رسائلهم، وتناولوها بطرقٍ مختلفةٍ، وأساليب متنوِّعة. ومن ذلك ما ورد في الرسالة التي أنشأها أبو بكر محمّد بن ذي الوزارتين(٥٥) على لسان أهل قرطبة، وأرسلها إلى المستعين بن هود، ففيها يكشف الكاتب عن تعلّق أهل قرطبة بابن تاشفين، إذ عدُّوه ملاذهم الآمن الذي يلجؤون إليه في النائبات، ويعبِّر عن قلقهم، وخشيتهم من أن يتخلَّى الأمير عن نصرتهم، ويتركهم لقمة سائغة لأعدائهم، ومردُّ هذا القلق الرسالة التي بعثها مليكهم المستعين إلى ابن تاشفين يلمح له فيها بعدم رغبته بقدومه إلى الأندلس، يقول ذو الوزارتين: (فحين وصلتْ دعوتُهم لسامعها، واتّصلت مظلمتهم برافعها، وتعلَّقوا من أمير المؤمنين، وناصر الدِّين، أيَّده الله، بالسّبب المتينِ، وآووا منه إلى الحصن الحصينِ)، ويقول: (وإنّا لَنخشى أن ينفض عن ذلك الثَّغر يده، ويحلَّ من عزمه فيه ما كان عَقَدَهُ، فحينئذٍ لا ينفعُ النادمَ قرعُ سنِّهِ، ولو هَتَمَها، والعاضَّ يده، ولو كَلَمَها)(٥٦).

وبلغ الأمر ببعض ملوك الطوائف أنَّهم كانوا يخاطبون ابن تاشفين، قبيل واقعة الزَّلاقة، يبدون له الانقياد والطَّاعة، ويبلغونه أنهم رهنُ إشارته إذا هو رغب في الجهاد، وفي تخليص بلادهم من سطوة النصارى. يذكر ابن خلّكان أنّ الأذفونش خرج (في بعض السِّنين يتخلَّل بلاد الأندلس في جمْع كبير من الفرنج، فخافه ملوك الأندلس على البلاد، وأجفل أهل القرى والرَّساتيق من بين يديه، ولجأوا إلى المعاقل، فكتب المعتمد بن عبَّاد إلى يوسف بن تاشفين

يقول له: "إنْ كنتَ مؤثراً الجهادَ فهذا أوانه، فقد خرجَ الأذفونش إلى البلاد، فأسرعْ في العبور إليه، ونحن معاشر أهلِ الجزيرةِ بين يديك")[٥٧].

وكان المعتمد بن عبَّاد أيضاً يتحامى بالأمير يوسف، وبخاصة حين يشتدُّ عليه كَلَبُ النصرانيّ الأذفونش. يروي بعض المؤرِّخين أنّ الأخير أرسل يوماً إلى المعتمد يطلب إليه مروحةً يُروِّح بها عن نفسه (فوقَّعَ له ابن عبَّاد بخطٍّ يده في ظهرِ الرّقعة: قرأتُ كتابكَ، وفهمتُ خُيَلاءكَ وإعجابكَ، وسأنظرُ لكَ في مراوح من جلود اللِّمطية في أيدي الجيوش المرابطية تريحُ منك لا تُروِّحُ عليكَ إن شاء اللهُ)[٥٨].

وابن تاشفين في رأي مسلمي الأندلس هو المالك الحقيقيّ لبلادهم، لأنه يملك صفات وقدرات تؤهله لإنقاذها، وإقامة العدل والحقِّ فيها، ورفع الجور والحيف عن أهلها، وهي أمانة في أيدي ملوك الطوائف، وعلى هؤلاء أن يردّوا الأمانة إلى صاحبها، وما ذلك إلاّ لعجزهم عن صونها، والحفاظ عليها. ويتجلّى ذلك في الرسالة التي كتبها أبو بكر محمد بن ذي الوزارتين جواباً عن أهل قرطبة على خطاب ورد إليهم من المستعين بن هود، يقول: (وقد كنتَ خاطَبْتَنا المرَّةَ بعد المرَّةِ، وكاتَبْتَنا الكرَّةَ بعد الكرَّةِ تذكر أنّكَ قد حللتَ عن تلك البلاد يدكَ، وأصفيتَ في طاعة أمير المسلمين وناصر الدِّين، أيَّده اللهُ، معتقدكَ، ورأيتَ أنّها أمانةٌ إلى حافظها وراعيها، وتسلِّمها إلى مَنْ يقومُ بحقِّ الله، عزَّ اسمُهُ، فيها)[٥٩]. ثمَّ يُؤنبُ الأديبُ المستعينَ على تقصيره في ردِّ الأمانةِ، ويستنكر عليه رغبته في الاستحواذ عليها على الرغم من قلَّة حيلته، وضعفه أمام جحافل النَّصارى الذين استولوا على قسم منها، ويتحيَّنون الفرصة المواتية للاستيلاء على ما بقي. وهو في هذا الخطاب يُقلِّل من شأن ابن هود، ويُعلي من قَدْرِ الأمير يوسف، ويُعزِّز فكرةَ المنقذ أو المخلِّص التي كانت راسخةً في أذهان الأندلسيين، وفيه أيضاً ردٌّ قويٌّ على محاولة ذلك الملك منع ابن تاشفين من العبور إلى الأندلس، يقول: (فما الذي نَقَلَكَ عن هذا الرأيِ الحميدِ والمذهب السَّديدِ إلى التمسُّكِ بما قد بان لكَ وجهُ الخيرةِ في تركِهِ، وإرادة التملُّكِ بما لا قدرةَ لكَ على ملكه؟ ولو كنتَ، أحسنَ اللّهُ توفيقكَ، مليَّاً بالدِّفاع، قديراً على التَّحصُّنِ من أعداء الله الكفرة والامتناعِ، لكنتَ معذوراً فيما

ترغبه، وجديراً أن يُخلى بينكَ وبين ما تطلُبه. لكنَّ العجبَ كلَّ العجبِ أن يكونَ سعيُكَ للكفَّار، وتوقيرُكَ للدَّمار، وكيف يسوغُ لكَ أن تُحذِّر من اللهِ وأنتَ لا تحْذَرُهُ، وتُذكِّر به تعالى ثمّ لا تذْكرُهُ ؟ ألستَ تعلمُ أنّ النصارى، لعنهم اللهُ، قد استولوا على ثغور المسلمين التي كانت بنظركَ منوطةً، وبمستقرٍّ قدميكَ مخلوطةً ؟ فهل كانت لكَ طاقةٌ بمحاربتهم، أو قوَّةٌ على مقارعتهم، أو إصراخٌ لمنْ استصرخَكَ من قتيلٍ مستشهدٍ، أو أسيرٍ مضطهدٍ ؟)[٦٠].

إن هذه المشاعر الصّادقة التي كان يكنُّها الأندلسيون لابن تاشفين، جعلتهم يبتهجون ابتهاجاً عظيماً حين وصل إلى أسماعهم نبأُ وصول الأمير وجيشه إلى الأندلس، لجهاد إعدائهم، وقد نقل الأدباء في رسائلهم تلك الأحاسيس، وعبَّروا عن أثر ذلك في نفوسهم وحياتهم. فالأديب عبد الرَّحمن بن طاهر[٦١] غمرت نفسَهُ مشاعرُ الفرح والسّرور، وهي مشاعر ممزوجة بالحزن والأسى وما ذلك إلا لعجزه عن الخروج لملاقاة ابن تاشفين، والاحتفاء به، والانضواء تحت لوائه، خشية العدوِّ المتربِّص بالمسلمين في طرقات الأندلس ومسالكها، كما صوّر الأديب حاجة الأندلسيين الماسّة إلى الأمير يوسف إذ عدَّ قدومه إلى بلادهم شفاءً للصُّدور، وبمثابة الماء للعطشان، والنَّجم للحيران، يقول: (كتبتُ، أيَّد اللهُ أميرَ المسلمين، وقد وافى الخبرُ المبهجُ بأنّ الجزيرة المهتضمة، حماها اللهُ، حلَّها إمامُها العادلُ، وسيفُها العاملُ، وليثُها الخادرُ، وقرمُها المبادرُ، فكان عندي كالماء للعطشانِ، والنَّجمِ للحيرانِ، فقلتُ: خبرٌ واللهِ جلَّى الشَّكَّ من اليقينِ، وشفى صدورَ قومٍ مؤمنين، فالحمدُ لله ربِّ العالمينَ، إذْ يقيمُ به اللهُ للحقِّ منارهُ، ويحمى من الإسلامِ ذماره، فأنفُ الكِبْرِ أجدعُ راغمٌ، ووجهُ الظُّلمِ أسفعُ قاتمُ، ووددِتُ أن أسعدَ بلقائهِ، واستظلَّ بلوائهِ، وألمّ بجوانبه، وأسيرَ بكتائبهِ، فأنال حظَّاً جسيماً، "ياليتني كنت معهم فأفوزَ فوزاً عظيماً"، ولولا أنّ العدوَّ بهذه الأقطار، ويجوسُ خلال الدِّيارِ، فلا تمكنُ المسالكُ، ولا تتورَّدُ المهالكُ، لكنتُ أوَّلَ واردٍ مع الورَّاد، ولقضيتُ فرضَ الجهادِ، وملأتُ عيني ممّن ملأ البسيطةَ عدلاً، وزادَ الفضيلة فضلاً، وإنّ العين لتفيضُ من الدَّمعِ لِما جدّت بي الأيامُ من القطعِ، ...)[٦٢].

ويرسم ابن تاشفين نفسه صورة واقعية للحفاوة الكبيرة التي حظي بهـا لحظـة دخولـه الأندلس المرّة الآولى، فأهلها توافدوا عليه من أقطار شتّى مستبشرين، معظّمين له ولجيشه، وراغبين في الانضمام إلى صفوفه، كي يكونوا يداً واحدة في جهاد الأعداء، كما يبدو ذلك في الرسالة التي بعثها إلى تميم بن المعزّ (فخرجنا في مرْسى الجزيرةِ الخضراء من دياره، وفّقهُ اللهُ، يعني المعتمد بن عبّاد، ففزِعَ النّاسُ من كلِّ أُفقٍ إليهم، ووفِدوا مـن كـلّ قطـرٍ إلـيهم، متعجِّبين من هيآتهم، ومحتقرين لزيِّهم ونغماتهم)، (...ومع هذا كلّـه فـإنّ أهـل الأنـدلس مستبشرون بنصرهم على أيدينا، وإزاحة غمَّتهم بسببنا)(٦٣).

ومن الأسباب التي تخصُّ ابن تاشفين، وحدتْ بأهل الأندلس إلى الاستنجاد به، هي مـا وصل إلى أذهانهم من صفات كان يتحلّى بها الأمير، مثل التّقوى والورع، والعـدل، وإقامـة الحقِّ، والشَّجاعة(٦٤)، هذا فضلاً عن مكانته الدُّنيوية الرفيعة، وزعامته للمغـرب، وسـيادته حمير، وهذا ما عبّر عنه المعتمد في رسالته التي أرسلها إلى ابن تاشفين سنة ٤٧٨ هجريـة، يقول مخاطباً إيّاه: (وأنتَ، أيَّدكَ اللهُ، ملكُ المغربِ أبيضه وأسوده، وسيِّدُ حِميـرٍ، ومليكُهـا الأكبرُ، وأميرها وزعيمها، ونَزعتُ بهمتي إليكَ، واستنصرتُ بالله ثم بك، واستعنتُ بحَرَمِكم، لتجوزوا لجهاد هذا العدوِّ الكافرِ، وتُحيواَ شريعةَ الإسلامِ، وتذبُّوا عن دينِ محمّدٍ، عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. ..) (٦٥). ويتجلّى ذلك أيضاً في الرسالة التي كتبها عبدالله بن أيمـن علـى لـسان المتوكِّل بن الأفطس إلى ابن تاشفين: (ولمّا كان نورُ الهدى، أيَّدكَ اللهُ، دليلَكَ، وسبيلُ الخيـرِ سبيلَكَ، ووضحتْ في الصَّلاحِ معالمُكَ، ووقفتْ على الجهادِ عزائمُكَ، وصحَّ العلمُ بأنَّكَ لدعوةِ الإسلامِ أعزُّ ناصرٍ، وعلى غزوِ الشِّركِ أقدرُ قادرٍ، وجبَ أن تُستدعى لِما أعضلَ من الـدَّاءِ، وتُستغاثُ لِما أحاطَ بالجزيرةِ من البلاءِ)(٦٦).

وتكشف بعض الرّسائل عن الدّور الذي قام به عدد من الأدباء في استنفار ابن تاشـفين، وبخاصة تلك الرّسالة التي كتبها الأديب أبو بكر ابن القصيرة بعد معركة الزّلاّقة، فهي تنبيء عن جهده الذي بذله في هذا الميدان، يقول: (....، فلم أزلْ أصلُ بينـي وبينـهُ الأسـبابَ، واستفتحُ إلى ما كنتُ أتخيَّلُ من نصرهِ الأبوابَ، إلى أن ارتفعت الموانعُ قبلهُ، وانتُهِجتْ السُّبُلُ

القصيَّةُ له....)[٦٧]، ولعلّ هذا الأمرَ هو الذي دعا ابن تاشفين إلى ضمِّ الأديب ابن القصيرة إلى زمرةِ كتَّابهِ فيما بعد.

ومثلها الرّسالة التي كتبها الوزير الأديب أبو عبدالله محمّد بن أيمن على لسان مليكه المتوكّل بن الأفطس إلى الأمير يوسف، ويظهر منها أن الأديب راسلَ ابن تاشفين غير مرّة يستنجده، وأنه هو الذي حمل رسالة مليكه إلى العدوة المراكشية بنفسه، ويؤكّد ذلك أيضاً قول ابن بسّام معلِّقاً عليها: (فكتب أبو عبدالله بهذه الرّسالة عن صاحبه، وأراها ثالثة الفاتحة، أو ثانية المُداخلة). [٦٨].

صفات الأمير يوسف

ركز فنّ الرّسائل في عهديّ الطّوائف والمرابطين الحديث عن الصّفات الشّخصيّة التي كان يتحلّى بها الأمير ابن تاشفين. فرسم الأدباء صورة للمثل الأعلى الذي كانوا يتطلَّعون إليه، وكانت تتطلَّع إليه الأمة الإسلامية في تلك الحقبة من تاريخها، وهي صورة تجعل منه شخصيّة مؤهلة لتحقيق آمالهم في الوحدة والخلاص من حالة الفوضى والخنوع والخوف.

والسِّمات التي قدّمها الأدباء في مجملها مأخوذة من واقع الأمير، وتدعمها أقوال المؤرّخين الذين كتبوا عن ذلك الرّجل.

إنّ الصِّفات إلي عكستها الرسائل متنوِّعة ومتعدِّدة، ومنها التَّقوى والورع، فهو في رأي عبدالله محمّد بن أيمن رجلٌ صالحٌ، يهتدي بشريعة الإسلام، ويستضيء بنورها في حياته كلّها، ويدافع عنها، ويسعى إلى إقامة منارها[٦٩]. ويصوِّره غير أديب ومنهم عبد الرحمن بن طاهر يقيم الحقَّ، ويجاهد في سبيل الله طلباً للثَّواب والأجر، ورغبة في رفع راية الإسلام، وقمع الشِّرك والضَّلال [٧٠]، ولهذا لقّبه الأدباء في رسائلهم بألقاب متنوِّعة، وكلّها تدلّ على مكانة الأمير الدّينية، ومنزلته في أمّته الإسلامية، مثل "ناصر الدّين"، و"محي الخلافة"، و"أمير المؤمنين"، و"أمير المسلمين"، و"الإمام"، و"جامع كلمة المسلمين" [٧١]، والأمثلة على ذلك كثيرة، فمنها ما جاء في إحدى رسائل المعتمد بن عبّاد: (إلى حضرة الإمام أمير المسلمين،

وناصر الدّين، محيي دعوة الخلافة، الإمام أبي يعقوب يوسف بن تاشفين)(٧٢). ومن ذلك ما ورد في رسالة الإمام الغزالي: (الأمير جامع كلمة المسلمين، وناصر الدّين، أمير المؤمنين، أبو يعقوب يوسف بن تاشفين. ..)(٧٣).

ومن الجدير ذكره في هذا المقام أنّ لقب محي الخلافة، استخدمه الكتّاب بعد أن أظهر الأمير يوسف تبعيته للخلافة العباسية، وأعاد الخطبة لها على منابر الأندلس، وقد كانت قُطِعت إبّان حكم ملوك الطّوائف، أما لقب أمير المسلمين، وناصر الدين، فاختاره ابن تاشفين لقباً له، وطلب إلى عمّاله ان يستخدموه. وقد أصدر بذلك مرسوماً جاء فيه (بسم الله الرحمن الرّحيم، وصلَى اللهُ على سيّدنا محمّدٍ وعلى آلهِ وصحبِهِ وسلِّم تسليماً. من أمير المؤمنين وناصر الدِّين يوسف بن تاشفين إلى الأشياخ والأعيان والكافّة من أهل "الفلانـة" أدام اللهُ كرامتهم بتقواه، ووفّقهم لِما يرضاهُ، سلامٌ عليكم، ورحمة اللهِ تعالى وبركاته. أما بعد، ...، وإنّا كتبنا إليكم من حضرتنا العليّةِ مرّاكش، حرسها اللهُ، في منتصفِ محرّم سنة ٤٦٦ هجرية، وإنه لمّا مَنَّ اللهُ علينا بالفتح الجسيم، وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرةِ والباطنة، بورود النعيم. ... ، رأينا أن نُخَصّص أنفسنا بهذا الاسم لنمتاز به على سائر أمراء القبائل، وهو أمير المسلمين، وناصر الدّين، فَمن خَطَبَ الخطبةَ العليّةَ السّاميةَ، فليخطبها بهذا الاسم. ...) (٧٤). ولهذا تداوله كتّابُه في رسائلهم، كما استخدمه كلّ مَنْ خاطبَ الأمير استجابةً لمرسومه، وإيماناً منهم بتقواه وصلاحه.

ومن مظاهر تقوى الأمير اتّكالُه على الله في حركاته وَسَكناته، والتزامه قواعد الإسلام في أموره كلّها، وقد تجلّى هذا التوكُّل في الرسالة التي بعث بها إلى تميم بن المعزّ، يصف له فيها الصّعوبات التي واجهته وهو يعبر بجيشه البحر إلى الأندلس قبل الزّلاقة، (وكان آخرُ مَنْ جاز معنا، قطعة من صنهاجة من بني عمِّي، فعسر البحرُ علينا حينئذٍ للجواز، واضطربت فيه الأمواجُ، فاستصرخنا الباري تعالى جدُّه الأعظم، وعظم جدّه الأعظم، إن كان في جوازنا خيرة للمسلمين أن يُسهِّلَ علينا، فما استكملتُ من كلامي حتى سهَّل اللهُ المركبَ، وقرَّب المطلبَ، فخرجنا من الحين في مرسى الجزيرة الخضراء) (٧٥).

وبدا التزامه بمنهج الإسلام في عدله الذي أسهب الأدباء في الحديث عنه، وإبرازه بصورٍ مختلفة. فالأديب عبد الرحمن بن طاهر يصفه إماماً عادلاً، أزال الظُّلم عن مسلمي الأندلس بعد أن كانت حقوقهم مهضومةً(٧٦). ومثل هذه المعاني وردت في رسالة الإمام الغزالي إذ قال مشيراً إلى ابن تاشفين: (ولمّا تملَّكها، رَفَعَ المظالمَ، وأظهر فيها من الدِّين المعالمَ، وبدَّد المفسدينَ، واستبدلَ بهم الصالحينَ ...) (٧٧). وَيركّز الغزالي في الرّسالة ذاتها على هذه السّمة التي كان يتزيّا بها الأمير يوسف، ويضمِّن نصَّه بعض الأحاديث النبويّة الدَّالة على حسن ثواب الإمام العادل، ومنزلته الرَّفيعة يوم القيامة، يقول: (. ... قال رسول الله، صلّى اللهُ عليه وسلّم، "ليومٌ من سلطانٍ عادلٍ خيرٌ من عبادةِ سبعينَ عاماً"، وقال، صلّى اللهُ عليه وسلّم، "ما من والي عشرةٍ إلاّ ويُؤتى به يوم القيامةِ مغلولةٌ يدُه إلى عُنُقِهِ، أوبَقَهُ جورُهُ، أو أطلقهُ عدلهُ"، وقال رسول اللهِ، صلّى اللهُ عليه وسلّم، "سبعةٌ يُظلُّهم اللهُ يومَ لا ظلَّ إلاّ ظلُّه"، وعدلُ الإمامِ العادلِ أوّلهم، ونحن نرجو أن يكونَ الأميرُ جامعُ كلمةِ الإسلامِ، وناصرُالدِّينِ، ظهيرُ أمير المؤمنين، من المستظلِّين بظلِّ عرشِهِ يومَ لا ظلَّ إلاّ ظلّه. فإنّه منصبٌ لا يُنالُ إلاّ بالعدلِ في السَّلطنةِ، وقد آتاهُ اللهُ السُّلطانَ، وزيَّنهُ بالعدلِ والإحسانِ. ...) (٧٨).

وأكثر الصفات بروزاً لابن تاشفين في فنّ الرّسائل هي صفات المجاهد الشُّجاع، ولعلّها أهمّ ما لفت أنظار الأدباء في حياة ذلك القائد، إذ أخرج الأندلس بجهاده، وقوَّة بأسه من الظُّلمات إلى النُّور، وأعاد للمسلمين هناك كرامتهم، وعزَّتهم بعد أن سُلبتْ منهم ردحاً من الزَّمن. ولهذا راحوا يشيدون بها، ويُمجِّدونها، فأخذتْ حيِّزاً كبيراً من كتاباتهم، ونجد فيها حديثاً مفصَّلاً عنها، وبخاصّة في رسائلهم التي أنشأوها قبيل الزَّلاقة وبعدها، وفي تلك التي خلّدت انتصاره على النّصارى سنة ٤٩٥هجرية، فافتتح على إثره مدينة بلنسية، واستعادها إلى حوزة المسلمين.

لقد أشادوا بعزم ابن تاشفين، وسرعة تلبيته نداء الجهاد في الأندلس، حين استغاث به أهلها قبل الزّلاقة، وهذا ما عبّر عنه أبو بكر ابن القصيرة إذ قال: (فأجاز إلى جزيرة الأندلس، في صدرِ سنة تسعٍ وسبعينَ، وبادرَ بجماعتهِ عجالاً، وتداركوها رُكباناً ورجالاً،

ونفروا نحوها خِفافاً وثقالاً، فكان من الفتح يومَ الجمعةِ ما كان، وصرعَ اللهُ عبدةَ الطَّواغيت...) (٧٩).

ويؤكّد الإمام الغزالي المعاني السابقة، ويضيف أنّ الأمير دائب التَّلبية للجهاد، مخلص النيّة فيه، يبذل الغالي والنّفيس في سبيل تحقيق النَّصر، وكسر شوكة أعداء الأسلام، ولذا يؤازره اللهُ، ويمدُّه بجنود من عنده. وخير مثال على ذلك جهاده في الزَّلاقة، ثمّ في حصاره حصن ليّيط بعدها بثلاث سنوات، يقول: (فلبَّى دعوتهم، وأسرع نصرتَهم، وأجاز البحرَ بنفسه وماله، وجاهدَ باللهِ حقَّ جهاده، ومنحهُ اللهُ استيصالَ شأفةِ المشركينَ، والإفراجِ عن حوزةِ المسلمين، جزاهُ اللهُ أفضلَ جزاء المحسنينَ، وأمدَّهُ بالنّصر والتمكينِ، وذكرَ، يعني ابن عربي، متابعته العودة إلى جهةٍ أُخرى بعد ثلاثةِ أعوامٍ من هذه الغزوةِ المشهورةِ، وقتل كلّ مَنْ ظهرَ من النّصارى بالجزيرةِ المذكورةِ من الخارجين لإمدادِ ملوكها على عادتهم، أو من سراياهم في أيِّ جهةٍ يمّموا من جهات المسلمين. وقذف اللهُ الرُّعبَ في قلوب المشركين حتى أعتاهُ ذلكَ عن جرِّ العساكرِ والجنودِ وعَقْدِ الألويةِ والبنودِ. .) (٨٠).

وتتحدّث بعض الرّسائل عن هدف ابن تاشفين من دخول الأندلس، والجهاد فيها، فأبو بكر محمّد بن ذي الوزارتين يراه رجلاً مجاهداً، غايته قمع الشِّرك والضّلال، دفاعاً عن الإسلام والمسلمين، وليس هدفه الملك والمال، كما يبدو في قوله مخاطباً المستعين بن هود: (وهو، أيّده اللهُ، لم يبلغْ بلادَكَ ولا غيرَها لمالٍ يبتزُّهُ، ولا لتملُّكٍ يستفزُّهُ، وإنّما بغيتُهُ أن يقمعَ الشيطانَ، ويستنقذَ المسلمينَ من الهَلَكِ) (٨١).

وتُظهر الرّسائل أمير المسلمين ملتزماً بقواعد الإسلام في الجهاد، إذ كان يخيِّر أعداءه قبل غزوهم ولقائهم بين أمور ثلاثة: الإسلام، أو الجزية، أو الحرب، وهذا ما فعله قبل واقعة الزّلاّقة مع النّصارى بقيادة الأذفونش، ويتجلّى ذلك في الرّسالة التي أرسلها إلى العَدْوة المراكشية بعد الظَّفر في تلك المعركة (فإنّ العدوَّ الطَّاغية، لعنه اللهُ، لمّا قَرُبنا من حماه، وتواقفنا بإزائه، بلّغناه الدّعوةَ، وخيَّرناه بين الإسلامِ والجزيةِ والحربِ، فاختار الحرب) (٨٢).

ومثل هذه المعاني جاءت في رسالته إلى تميم بن المعزّ بن باديس، يقول فيها مشيراً إلى الأذفونش: (فبعثنا إليه بحضِّهِ على الإسلام، ودخوله في ملَّة محمّد عليه السلام، أو ضـــرب الجزية عليه، وإسلام ما كان من المال والبيوت لديه، كما أمرنا اللهُ تعالى).

وتتناول الرّسائل غير مظهر من مظاهر شجاعة الأمير يوسف، ومنها أنّه كان لا يأبـــه بتهديدات النّصارى له، وإنّما كان يبدي حزماً معهم. يذكر المؤرّخون أنّ الأذفـــونش أرســـل إليه قبل الزّلاقة غير رسالة، يستخف فيها بالمسلمين وبأميرهم يوســـف، ويتوعّـــده بحـــرب ضروس، ويهدّده بأنّه سيبادر إلى لقائه، وقتاله في المغرب موطنه قبل أن يـــأتي هـــو إلـــى الأندلس(٨٣). فيردّ ابن تاشفين على تهديدات الأذفونش بتهديدات مثلها، فِعْلَ المعتـــدّ بنفـــسه، الواثق بنصر الله. ورد في إحداها: (وبَلَغَنا ياأذفونشُ أنّك دعوتَ في الاجتماعِ بكَ، وتمنّيـــتَ أن يكونَ لك فُلْكٌ تعبر البحرَ علينا إلينا، وسترى عاقبةَ دُعائكَ "وما دعاءُ الكـــافرينَ إلاّ فـــي ضلالٍ") (٨٤). وأمر ابن تاشفين كاتبه ان يكتب على ظهر رسالة أخرى للأذفونش، ما ردّ به هارون الرّشيد على ملك الرّوم، (جوابكَ يا أذفونش ما تراه، لا ما تسمعهُ)، وأردف الكتـــاب ببيت أبي الطَّيِّب المتنبي:

ولا كتبٌ إلاّ المشرفيّةُ والقنا   ولا رسلٌ إلاّ الخميسُ العرمرمُ(٨٥)

يبدو الأمير مستخفّاً بقائد النّصارى إذ كتب جوابه على ظهر رسالة الأذفـــونش، فـــالرّدّ عليه في نظره لايستأهل ورقة أخرى جديدة. ويظهر مثل هذا الاســـتخفاف فـــي أنّ الأميـــر يوسف كان يتجاهل بعض رسائل الأذفونش، فلا يجيب عنها، وهو ما صرّح به في الرّســـالة التي كتبها إلى تميم بن المعزّ بن باديس (وكان قد تقدَّم إلينا بالعدوة من قبلِ الأذفـــونش أميـــرِ النّصارى رسالة، يخاطبنا فيها بالجواز إلينا، إذا عجزنا عنه، وفَرقنا منه، ..، فلم نلتفتْ إليه، ولا عَرجنا عليه) (٨٦).

وتتمثّل شجاعة يوسف بن تاشفين في أنّه لم يكن يتأنّى حتى يهاجمه العدوّ في عقر داره، وإنّما كان دائماً يبادر إلى مهاجمتهم، وربّما كان ذلك مؤازرة لبعض قادته الذين يجاهدون في جبهات أخرى، وهذا ما عبّر عنه في الرّسالة التي كتبها على لسانه أبو بكر ابن القصيرة إلى

المنصور بن علنّاس صاحب قلعة حمّاد (ونحن أثناء ما فعلتَ، وخلال ما عقدتَ وحَلَلْتَ، نؤمُّ العدوَّ، قصمهُ اللهُ، فنجبههُ ونكافحهُ، فنقدعهُ ونناطحهُ، ونتحيَّفهُ من أقطـاره، ونغـزوه بَـدءاً وتعقيباً في عقر دارهِ) (٨٧). وكان الأمير أيضاً يحثّ أمراءه وقادتـه علـى غـزو العـدوّ، واستباحة دياره وجهاده، ويتجلّى ذلك في رسالة كتبها عنه يحيى بن عبد الكريم الشَّنتوفي(٨٨) إلى أحد الأمراء، يدعوه فيها إلى جهاد الأعداء واستئصال شأفتهم، يقـول: (ولا تـذرْ فـي الأرض كفراً، ولا تدعْ فيها إشراكاً) (٨٩).

وتحدّث الأدباء في رسائلهم عن المعارك التي خاضها الأمير يوسف ونتائجهـا، وعـن فتوحاته وأثارها، ورسموا صوراً لشجاعته في القتال، وحسن بلائه فـي مقارعـة الأعـداء، وبخاصّة في واقعتي الزّلاقة سنة ٤٧٩ هجرية، وبلنسية سنة ٤٩٥ هجرية.

أمّا الزلاّقة، فقد أنشأ فيها الأدباء غير رسالة، صوّروا فيها جهاد الأمير يومذاك وثباتـه، حتى تحقّق له النّصر، وأذاق النَّصارى وبال أمرهم، ففرّوا من المعركـة، وتـبعهم جنـده، يحرّقون عليهم معسكراتهم وينهبونها، كما يبدو في الرّسالة التي كتبتْ على لسانه إلى العـدوة المغربية عقب الانتصار (وأميرُ المسلمين، بحمدِ اللهِ، قد ثبتّ في وسـطِ مواكبِـهِ المظفَّـرة، وتحت ظلالِ بنودِهِ المنتشرةِ، منصور الجهادِ، مرفوع الأعداء، ويشكر الله تعالى علـى مـا منحهُ من نيلِ السؤالِ والمرادِ، فقد سرّحَ الغاراتِ في محلاّتهم تهدم بناءَها، وتصطلم ذخائرَها وأسبابَها، وتريه رأيَ العينِ دمارها ونهبها...) (٩٠).

ويفصّل أبو بكر ابن القصيرة في رسالته الحديث عن مجريات الزّلاقـة، وجهـاد ابـن تاشفين فيها، وما نزل بجيش العدوّ وقائده الأذفونش من هزيمة، كما يُصوّر آثار النصر فـي رفع شأن الإسلام والمسلمين، وإذلال الكفر والكافرين، ويقصد بهم النّصارى، الـذين نُهبـت أموالهم، وقُتل أكابر رجالهم وقادتهم، ولم يبق منهم سوى القليل، وقد عَمِـل المـسلمون مـن جثثهم المتناثرة في أرض المعركة صوامع، ومَنْ نجا منهم من القتال، طارده جنود الأميـر، وأهلكه الجوعُ والعطش. يقول: (كتبت صبيحة يوم السبتِ الثالث عشر من رجب، وقد أعزَّ اللهُ الدِّين، وأظهر المسلمينَ، وفتح لهم بفضلهِ على يدي مسعانا الفتحَ المبينَ، بما يسّرَ اللهُ فـي

أمسه وسنّاهُ، وقدّره سبحانه وقضاهُ، من هزيمة أذفونش بن فرذلند، أصلاهُ اللهُ، إن كان طاح، الجحيمَ، ولا أعدمه، إن كان أُمهلَ، العيشَ الذّميمَ، كما قنّعهُ الخزيُ العظيم، إتيان القتل علـــى أكابر رجاله وحماته، وأخذ النّهبُ في سائر اليومِ واللّيلةِ، المتّصلةِ به إلـــى جميـــع محلاّتـــه، وحضور العدد الوفير بين يديّ من رؤوسهم، ولم يحتزّ منها إلاّ ما قرب، وامتلاء الأيدي ممّا قُبض ونُهب، واتّخذ النّاسُ من هاماتهم صوامع يؤذِّنون عليها، ويشكرون اللهَ تعالى على مـــا صَنَعَ فيها، والتّتبُّع بعد آثارهم، وتمادي الطَّلب من وراء فرّارهم، والـــذي لا مِرْيـــةَ فيـــه أنّ الناجي منهم قليل، والمفلتُ من سيوف الهندِ بسيوف الجوع والبعدِ مقتولٌ..) (٩١)

وقريب من الصّور الآنفة ما ورد في الرسالة التي أرسلها ابن تاشفين إلى تميم بن المعز بن باديس، إذ يلقي الضوء بأسلوب قصصيّ ساخر ومفصّل على مصير النّصارى والأذفونش إثر هزيمتهم (وقد تراجع النّاسُ بعد الفرار، وأَمِنوا، وتضافروا مع عسكرنا وغيرهم، يقطعون رؤوسَهم، وينقلونَ بإزاء المحلاّت حتى عَلَتْ كالجبالِ الرّاســياتِ. ...، والأيـــدي متعـــاودةٌ لبطونهم، واستأصلنا أكابرَهم. ...، وانقطع من عسكرهم نحو ألفي رجلٍ أو أقلّ، والأذفونش فيهم، على ما أُخبرنا، قد أُثخنوا جراحاً بإزاء محلاّتهم. يرتادون الظّلامَ للهروبِ في المقـــام، واللهِ لقد كان الفرسانُ والرّجالةُ يدخلون محلّتهم، ويعثرونَ في أخبيتهم، وينتهبـــون أزودتَهـــم، وهم ينظرونَ شذراً نظرَ التُّيوسِ إلى شفار الجزَّارينِ، إلى أن جنَّ الليلُ وأرخى سدولَه، ولّـــوا هاربين، وأسلموا رحايلهم صاغرينَ) (٩٢).

أمّا فتح بلنسية، فقد أنشأ فيه الأدباء عدداً من الرّسائل، ولم تختلف مضامينها كثيراً عـــن مضامين الرسائل التي قيلت في وقعة الزّلاقة سوى في طريقة التّعبير. فالأديب جعفـــر بـــن محمّد بن شرف(٩٣) يصوّر الفتح نعمة غمرتْ قلوب المسلمين بالفرحة والسّرور. ثمّ يـــدعو للأمير يوسف، ويُرجع الفضلَ إليه في هذا النّصر، فهو الذي جيّش الجيوش وقادها إلى حرب الغزاة المحتلِّين، يقول: (فَقُلْ، أعزّكَ اللهُ، في فتحٍ عمَّ ببهجتِهِ قلوبَ المؤمنينَ، وخصَّ بالفضلِ فيه أمير المسلمينَ، وناصرَ الدّينِ. ووفى به ضمانه،وأرجحَ بفخرِهِ وأجرِهِ ميزانهُ، حتى اقتدحَ بحسامِهِ، ووسم بأعلامِهِ، ووُرِّخَ بسعيدِ أيّامِهِ، دعا مانعَهُ فأجابَ، وجلّى عاتمَهُ فانجابَ، فـــتحٌ

سالتْ تلاعُهُ بماء النِّعمةِ..) [٩٤]. ويواصل الكاتب في رسالته ذاتها الحديث عن الفتح وآثاره، فيصوّره عروساً ترفلّ في ثوبها الجديد، أعاد للمسلمين عزّتهم وكرامتهم وقد كـانوا مـوتى أذلاّء قبله، وأذلّ الباطل، وعفّى معالم الكفر والإلحاد، يقول: (. ..أشرقَ وجهُ الدِّينِ فأسفرَ، وزهق حزبُ الملحدينَ فنفرَ، وأقبلَ الفتحُ في لمّة التأييدِ، يرفلُ في ثوب النَّصر الجديدِ، وجـاء الوعدُ النّاجزُ ببلنسيةَ تجذبها أعنّةُ الأقدارِ، وتسوقُها أحكامُ الجبّارِ، فالآن قد نُشِرَ الميّـتُ مـن لحدهِ، وعاد الحسامُ إلى غمده، فسبحانَ مَنْ سبَّبَ ما سبّبَ، وأدّبَ بالموعظةِ مَنْ أدّبَ، محّـصَ الذِّلّةَ فأزالها، وقدَّر العثرةَ فأقالها، وأعادَ نعمةً كان قد أذهب خضراءها، وأبادَ غضراءها) [٩٥]

ويتحدّث الأدباء عن معارك أخرى خاضها ابن تاشفين، فالأديب يحيى بن عبـد الكـريم الشَّنتوفي كتب رسالة خلّد فيها نصراً للأمير على النّصارى في مدينة شريش، فصوّر الإيمان فرحاً مبتهجاً مختالاً، يتزيّا بثوب العزّ والفخار. والكفر ضعيفاً مهزوماً، فقال: (والكفرُ فلّـتْ مناصلُهُ، وعُرِفتْ مقاتلُهُ)، (ولأقلّ ممّا احتوى عليه هذا الفتحُ تهتزُّ المعاطفُ، إذ الإيمانُ اهتزَّ إعطافاً، وتوشَّح به عِطافاً) [٩٦].

منهجه في الحكم وإدارة البلاد

أظهر ابن تاشفين إبّان فترة حكمه قدرة على الحكم والإدارة، فاستطاع ضبط أمور الدّولة في المغرب والأندلس، في أوقات صعبة كانت تمرّبها الأمّة الإسلامية. ولعلّ ذلك راجع إلى الصفات التي كان يتحلّى بها الأمير، وإلى عقليته المتفتّحة، وذهنه المتوقّد، ثمّ إلى منهج دقيق كان يتّبعه في إدارة شؤون البلاد.

كان ابن تاشفين يدرك أنّ الحاكم الحقيقيّ مسؤول أمام الله والنّاس، ومسؤول أمام نفسه، ينبغي عليه ان يهتمّ بدقائق الأمور وصغائرها، حتى لا يقع ظلم أو حيف أو تقصير.

وحتى لا تفقد الدّولة هيبتها، ويصيب دوائرها الفساد، الذي متى وقع، فإنّه يعنـي بدايـة الانهيار. وهذا كلّه تنبىء عنه سيرته، وأقوال المؤرّخين الذين أشـادوا بكفاءتـه فـي هـذا المجال، فقالوا: إنّه كان (حازماً، سائساً للأمور، ضابطاً لمصالح مملكته....) [٩٧].

وتكشف عنه الرسائل التي صدرت عن ديوان إنشائه إلى عمّاله وموظفيه فـي أمـصار الدّولة كافّة. فهي تبيّن بعض ملامح المنهج أو الطريقة التي كان ينتهجها في تـسيير أمـور دولته.

لقد كان ابن تاشفين حريصاً على اتّباع النّموذج الإسلامي في ذلك، ولـذا اعتمـد مبـدأ الشورى، وجعله أساساً من أسس الحكم والإدارة. فلا يكاد يقرّ أمراً عظيماً، أو يحزب بالأمة أمر جلل، حتى يجتمع بأهل الحلّ والعقد والرأي، فيطلب مشورتهم ونصحهم. وكثيراً ما كان يصدر عن آرائهم فيما يقرّره من أمور. يذكر المؤرّخون أنّه كـان (كثيـر المـشورة) (٩٨)، (يفضّل الفقهاء، ويعظّم العلماء، ويصرف الأمور إليهم، ويأخذ فيها برأيهم، ويقضي على نفسه بفتياهم) (٩٩).

وكان يتأنّى في اختيار عمّاله وموظفيه، ورجال دولته، فلا ينصّب منهم إلاّ ذوي الكفاءة، الّذين يتحلّون بصفات التّقوى والصّلاح. وإذا عَهِدَ إلى أحدهم بمنصبٍ مـا، كـان يوصـيه بوصايا عديدة، ويقدّم له النّصح والإرشاد. وتبدو هذه المعاني جليّة في غير رسالة، ومنهـا الرّسائل التي عَهِد فيها بولاية العهد لابنه أبي الحسن عليّ سنة ٤٩٦ هجرية، وكتبها أبو بكر ابن القصيرة، والوزير الفقيه أبو محمّد بن عبد الغفور(١٠٠).

يبيّن ابن القصيرة في المنشور الذي كتبه عن ابن تاشفين أنّ الأخير اختار ابنـه لتلـك المهمّة، ليس عن هوى في نفسه أو استبداد في الرأي، وإنّما كان الأمر بعد أن اسـتخار الله، وشاور الفقهاء والعلماء، وأهل الحكمة والخبرة والتجربة في دولته، فأشاروا عليه بذلك، فعليٌّ قد نشأ في حجر أبيه، وأخذ عنه الصفات الحميدة مثل التّقوى والحلم وغيرهمـا، ولـذا فهـو يستأهل المنصب الذي أُنيط به، يقول: (كتابُ توليةٍ عظيمٍ جسيم، وتوصيةِ حميمٍ كريمٍ، مُهِّدتْ على الرِّضا قواعدُهُ، وأُكِّدتْ بيد التّقوى معاقده، وأُبعِدتْ عـن الغَوايـةِ والهـوى مـصادرُهُ وموارِدُهُ، أنفذَهُ أميرُ المسلمين، وناصر الدّين، أبو يعقوب يوسفُ بن تاشفين، أدامَ اللهُ عـزَّهُ، .... للأميرِ الأجلِّ أبي الحسنِ عليّ ابنِهِ المتقبِّلِ شِيَمَهُ وهِمَمَهُ، المتأثِّـلِ حِلْمَـهُ وتَحلُّمَـهُ، الناشيء في حَجْرِ تقويمِهِ وتهذيبِهِ)، (وقد تهمَّمَ بمَنْ تحت عصاهُ من المسلمين، وهـذا فـيمنْ

يَخْلُفُهُ فيهم هُدىً للمتَّقينَ، ولم يرَ أنْ يتركهم سُدىً غير مدينين، فاعتـام(١٠١) فـي النّـصاب الرّفيع، واستنْصحَ أُولي الرّأيِ منهم ومن غيرِهم واستشارَ، واستضاءَ بـشهابِ اسـتخارةِ اللهِ عزّوجلّ واستنارَ، فلم يوقِع اللهُ بعد طولِ تأمُّلٍ، وتراخي مدَّةٍ، وتَمهُّلْ، اختيارَهُ ولا اختيارَ مَنْ فاوَضَهُ في ذلك من أُولي التّقوى والحكمةِ والتّجربةِ واستشارَهُ إلاّ عليه، ولا صار بـه وبهـم الاجتهادُ إلاّ إليه.....، فولاّهُ على استحكامِ بصيرةٍ، وبعد طولِ مشورةٍ عهدَهُ، وأفـضى إليـه بالأمرِ والنّهيِ والبسطِ والقبضِ بعده...) (١٠٢). ثمّ يتناول الكاتب وصايا ابن تاشـفين لابنـه، وهي وصايا كان ينتهجها الأمير نفسه في الحكم والإدارة، فقد حثّه على التّقـوى، والعـدل، والتزام شريعة الإسلام في حكمه، وطلب إليه أن يرعى شؤون رعيته، ويسهر على راحتهـا، وأن يكون قريباً منهم غير بعيد، يحبّبهم إليه، ويستمع إلى شكاياتهم، وألاّ يـصمّ أذنيـه عـن سماعها، وأن تكون بلاده جميعها في قبضته، فلا يغفل عنه شيء من أخبارها، يقول: (وعَهِدَ إليه أن يتّقيَ اللهَ ما استطاعَ، ولا يعدِلَ عن سمتِ العدلِ، وحكْمِ الكتابِ والسنّة في أحدٍ عصى أو أطاعَ، ولا ينامَ به عن حمايةِ مَنْ أسهَرَهُ الحيفُ والخوفُ والاضـطجاعُ، ولا يَتَلهّـى دونَ مُعلنٍ شكوى، ولا يَتَصمّمُ عن مُستصرخٍ لدفاعِ بلوى، وأن ينتظِمَ أقصى بلادِهِ وأدناها في سِلكِ تدبيرِهِ، ولا يكون بين القريبِ والبعيدِ من رعيَّتِهِ بونٌ في إحصائهِ وتقديرِهِ) (١٠٣).

ويحرص الأمير على مبدأ أخْذِ البيعة لولده إذ دعا المسلمين في الأمصار المختلفة إلـى ذلك، وإلى السّمع والطّاعة، وبذل النّصيحة له، وإخلاص النّيّات، والوقوف إلى جانبـه فـي السّرّاء والضرّاء، يقول: (ثمّ دعا، أدام اللهُ تأييدُهُ، لمبايعتِهِ مَنْ دنا ونأى من المسلمين، فلبّـوا مسرعين، وأتوا مهطعينَ، ....، وبايعوه على السّمعِ والطّاعةِ، والتزامِ سَنَنِ الجماعةِ، وبـذل النّصيحةِ، وإصفاءِ النّيّاتِ الصّحيحةِ، ومُوادّةِ مَنْ صاحَبَهُ، ومُحاربَةِ مَنْ حارَبَهُ، ومُكايدةِ مَـنْ كايَدَهُ، . ....، ثمّ أمر بمخاطبةِ أهلِ البلادِ لتُبايعَهُ كلُّ طائفةٍ في بلدِها، وتعطيه كما أعطاه مَنْ حضَرَ صفقة يدِها، حتى يستوي في التزامِ بيعتِه القريبُ والبعيدُ، ويجتمعُ على الاعتصامِ بحبلِ دعوتِهِ الغائبُ والشّهيدُ) (١٠٤).

ويكتب ذو الوزارتين أبو بكر ابن القصيرة رسالة عن يوسف بن تاشفين (إلى قاضي الجماعة بقرطبة أبي عبد الله بن حمدين[١٠٥]) يطلب إليه فيها تولّي القضاء. وهي تؤكّد سياسة ابن تاشفين السابقة في إدارة شؤون البلاد، وسياسته تجاه عمّاله وموظّفيه، وتضيف إليها جوانب أخرى، كما تبيّن اعتناءه بالقضاء، إذ حرص على أن يتولاّه رجل من أهل التّقوى والصّلاح، يكون قادراً على مواجهة المشكلات الصّعبة والمستجدّة، ولهذا وقع اختياره على ابن حمدين، يقول ابن القصيرة: (وصل كتابُكَ فوقفنا على معانيه، وأحصينا المُجمَلَ والمُفصّلَ فيه ممّا ذكَرْتَهُ فيه، والذي أومأتَ إليه من أنّ الأمرَ الذي وُلِّيتَهُ ذو شغوبٍ مشغبةٍ، وأشغالٍ على مُحاوِلِها صعبة، حقٌّ لا امتراءَ فيه، ولا غطاء عليه من مُحصّليه، ولذلك ما اختير له على وجه الزّمانِ من أهلِ المننِ من أولي الدِّيانةِ والصِّيانةِ الذين نرجو أن تكونَ محسوباً منهم، وفي صدرِ ديوانهم مكتوباً) [١٠٦]. ثمّ يطلب الأمير إليه أن يتولّى القضاء، وأن يعمل فيه وفق أحكام الإسلام، فلا يخشى في الله لومة لائم، وأن يعدل بين النّاس، ويستخدم سياستي الحزم والحلم في إمضاء الأمور، ويبدو الكاتب متأثّراً بخطبة أبي بكر الصّدّيق حين ولي الخلافة، إذ ينصح القاضي بألاّ يفرّق بين قويّ وضعيف أمام القضاء، فالقوي ضعيف حتى يأخذ الحقّ منه، والضعيف قويّ حتى يأخذ الحقّ له، يقول: (فاستهدِ اللهَ يهدكَ، واستعنْ بالله يُعنْكَ في صدركَ ووِرْدِكَ، وتولّ القضاء الذي ولاّكه اللهُ بجدٍّ وحزمٍ، وجَلَدٍ وعزمٍ، وامضِ القضايا على ما أمضاها اللهُ تعالى في كتابه وسنّةِ نبيِّهِ، ولا تُبالِ برغْمِ راغمٍ، ولا تُشقِقْ من ملامةِ لائمٍ، وآسِ بين النّاسِ في وجهِكَ وعدلِكَ ومجلِسِكَ، حتى لا يطمعَ قويٌّ في حيفِكَ، ولا ييأسَ ضعيفٌ من عدلِكَ، ولا يكنْ عندكَ أقوى من الضّعيفِ حتى تاخذَ الحقَّ له، ولا أضعفَ من القويِّ حتى تأخذ الحقَّ منه) [١٠٧]. ويعلن ابن تاشفين صراحةً مؤازرتَه ودعمه ابن حمدين، فيبيّن له أنّه مذ أضحى قاضياً، صارت كلمته نافذة على أمير المسلمين والمرابطين جميعاً، فلا يملكون الاعتراض على حكمٍ أصدرهُ إلاّ الحكم الذي صدر عن هوى نفسه. ويعود مرّة أخرى إلى إسداء النّصائح له، فيطلب إليه ترك المحاباة، وألاّ يتوانى في نشر العدل، أن يأخذ على يد الظّالم، فيردّ الحقوق إلى أصحابها، وأن يتثبّت قبل الحكم، فإذا ثبتَ له فسادُ عامل، حينئذٍ له الحقّ في عزله أو سجنه أو ضربه أو تغريمه. يقول: (وقد عهدنا إلى

جماعةِ المرابطين أن يُسلّموا لكَ في كلّ حقٍّ تُمضيهِ، ولا يعترضوا عليك في قضاءٍ تقـضيهِ، ونحن أوّلاً، وكلُّهم آخراً مذ صرتَ قاضياً، سامعونَ منكَ، غيرُ معترضينَ في حـقٍّ عليـكَ، والعمّالُ والرّعيّةُ كافّةً سواءٌ في الحقِّ، فإنْ شَكَتْ إليكَ بعاملٍ وصحّ عندكَ ظلمُهُ لها، ولا يتّجهُ في ذلك عملٌ غير عزلهِ فاعزلهُ، وإن شكا العاملُ من رعيه خلافاً في الواجبِ، فاشكِهِ منهـا وقوّمها له، ومن استحقَّ مِنْ كلا الفريقينِ الضّربَ والسّجنِ، فاضربْهُ واسجنْهُ، وإنْ اسـتوجبَ الغُرْمَ فيما استهلكَ، فغرِّمهُ، واسترجعِ الحقَّ شاءَ أو أبى من لدنْهُ) (١٠٨).

ومن مظاهر مؤازرة ابن تاشفين عمّاله وموظّفيه، أنّه كان يضرب بقوّة وحزم على يـد مَنْ تجرّأ عليهم، أو افترى، أو حاول إيذاءهم. يقول الفتح بن خاقـان: (ولمّـا قلّـدَ أميـرُ المسلمينَ الوزيرَ أبا الوليد بن سقبال النّظرَ في متخلَّص غرناطة، . ... اقتربتْ إلـى الرّفـع عليه طائفةٌ سحيقةٌ مشهورةٌ بالبغي معروفـةٌ، حـسدتْهُ فـضلهُ واعتدالـهُ) (١٠٩)، فكتـب ذو الوزارتين أبو بكر ابن القصيرة عن ابن تاشفين إليهم رسالة شديدة اللّهجـة، تـسخر مـنهم، وتكشف عن حالهم، فهم هملٌ لا مرشد لهم، معروفون بين النّاس بضلالهم وبغيهم وعدوانهم، يفترون على ابن سقبال، ويسعون للإيقاع به، وتؤكّد الرسالة من جهة أخرى فضل الوزير أبي الوليد، وحسن سيرته، يقول: (أمّا بعدُ، نزعَ اللهُ بكم عن سبيل الغيّ، وألهمكم ما نسيتموه من سديد الرأي، وحميد السّعي، فقد بَلَغَنا ما قِبَلِكم من الخوض في الأباطيلِ، والتّفرّغ لما حطّ في الاشتغال به لذوي النّهي والتّحصيلِ، والأخذِ في جهةِ الوزير المشرف أبي الوليد بن سـقبال خاصّتنا، أبقاه اللهُ، من مُتَأَكّد الفضولِ، . وقد كان نولكم لو أنّ ثَمّ نظراً وبَـصَراً أن يُرشِـدَ كبيرُكم صغيرَكم، ويرحمَ خيِّرَكم عن قِبَلِ شرِّيركم، نعْتُكم سواسيةً كأسنان الحمـارِ، يتَلَهّـى شيوخُكم بسفاهاتِ فتيانكم، ويَتَهاوَنُ سَفَلَتُكم وغوغاؤكم بأخطار أعمالكم، حتى ضُربت بكم هذه المُقدِّمات والأمثالُ، وكَثُرَ فيكم القيلُ والقالُ) (١١٠). ثمّ يبيّن لهم أنّ ما مرّمن خطاب كان على سبيل العتاب والتأنيب، ولذا يهدّدهم بالويل والثّبور إن عادوا إلى غيِّهم وسالف عهدهم. ويختم الكاتبُ رسالته بدعوتهم إلى الصّلاح، وتقوى اللهِ، مبيّناً لهم أنّهم مراقبون، ولن يُتركوا سُدى يفعلون ما يشاءون، يقول: (وها نحن نؤذنُكم بالتثريب ونكبحُكم عن جماحكم بالتأنيب، فـإن أغنى ذلكَ وأبرأكم من دأبكم، وإلاّ قابلناكم بيومٍ من العقابِ عصيبٍ. فاتّقوا اللهَ وانزعوا عـن

مواقعهِ ما لا يرضى، ولْيُقبلْ كلُّ واحدٍ على ما يعنيهِ ديناً ودنيا، فهو أليقُ، وله أولى، واعلموا أنّ لنا عليكم عيوناً ترعى، وتهتبلُ وتراقبُ، ولا تغفلُ، فالحذارِ الحذارِ، وإيّاكم والتّجاهلُ والاغترارُ، ولا توفيق إلاّ باللهِ، والسّلامُ على مَن استقامَ) (١١١).

ويُظهر فنّ الرسائل في عهد المرابطين حرص الأمير يوسف على وحدة المسلمين وبلادهم، ولهذا كان يقف بحزم أمام كلّ مَن تُسوِّل له نفسه أن يعبث بتلك الوحدة، أو يثير الفتن والقلاقل، ويدل على ذلك غير رسالة، ومنها الرسالة التي كتبها عنه أبو بكر ابن القصيرة إلى " طائفة متعدّية "(١١٢)، وأخرى إلى أهل مِكناسة، وقد انحرفوا عن المنهج الذي رسمه الأمير فأظهروا النزاع والشّقاق بينهم. وكلتا الرّسالتين تتناولان موضوعات متشابهة، يكفي للتدليل عليها دراسة الرسالة الأخيرة، ففيها يستخدم الكاتب أساليب التّرغيب والتّرهيب، والتّهديد والوعيد، وفيها نقد لاذع لأوضاع مكناسة وأهلها. فقد بدأها الكاتب بالحديث عن الفوضى التي كانت تسود حياتهم، وعمّا كانوا عليه من زيغ وضلال، وسوء حال، فيصوّرهم هملاً، يسعون في الأرض فساداً، وهذا الأمر سواء فيه علماؤهم وجهّالهم، ورؤوسهم وسوقتهم، يقول: (أمّا بعد، أصلح اللهُ من أعمالكم ما اختلّ. ... فقد بلَغنا ما أنتم بسبيله من التّقاطعِ والتّدابرِ، وما ركبتم رؤوسكم من التّنازع والتّهاتر، قد استوى في ذلك عالمكم وجاهلكم، وصار شَرْعاً سواء فيه نبيهُكم وخاملُكم، لا تأتمرونَ فيه رُشداً، ولا تُطيعونَ مُرْشداً، ولا تأتونَ سَدَداً، ولا تستقيمونَ مقصداً، ولا تفلحونَ إن لم تنزعوا عن غَوايتكم أبداً) (١١٣). ثمّ يبيّن لهم أنّ باب التّوبة ومراجعة النّفس ما زال مفتوحاً، ويحثّهم على التقوى والاستقامة، وأن يبذلوا جهودهم في أعمال البرّ والصّلاح، وألاّ يقضوه في طاعة الشّيطان، وهوى النّفس. وإذا لم يستجيبوا لنصائحه ومواعظه فلا خيار له إلاّ ان يُنزلَ بهم العقوبة الشّديدة الرّادعة. ويختم الكاتب رسالته بآية من القرآن الكريم تتلاءم والموقف الذي يعبّر عنه، يقول: (فلا يسوغُ لنا أن نترككم في فوضى، ، وندعكم سدىً، ولا بدّ لنا مِن أخذِ قناتكم بثقافٍ، إمّا أن تستقيمَ أو تتشظّى قصداً، فتوبوا من ذنبِ التّباغض بينكم والتّضاغن، واعصوا شياطينَ التّحاقد والتّشاحن، وكونوا على الخيرِ أعواناً، وفي ذات اللهِ إخواناً، ولا تجعلوا للعقوبةِ عليكم يداً ولا سلطاناً، واعلموا أنّ مَنْ نزعَ بينكم بشرٍّأو نَعَبَ في فتنةٍ بضرّ، وقام عندنا عليه الدّليلُ، واتّجه

إليه السّبيلُ، أخرجناه عنكم، وباعدناهُ منكم، واتّقوا اللهَ، وكونوا مع الصّادقين، ولا تتولّوا عن الموعظةِ وأنتم مُعرضونَ، ولا تكونوا كالّذين قالوا " سَمِعنا وهم لا يسمعونَ"، وحسبنا هذا وبالله التّوفيق) (١١٤).

والأمير يوسف ابن تاشفين يزعجه إذا ما تناهى إلى مسامعه أنّ هناك حرباً دارت بين المسلمين، سُفكت فيها الدّماء، وراح ضحيّتها أناسٌ أبرياء، وفقدت جرّاءها البلاد الأمن والأمان، ولهذا كان إذا ما اعتدى والٍ على آخر في المناطق الخاضعة لسلطانه، يهبّ لنصرة المظلوم، والتّصدّي للظّالم، وفضحه على رؤوس الأشهاد، وكان لا يقتنع بالأسباب التي أدت إلى وقوع تلك الحروب، فلا شيء، في رأيه، يستدعي أن يقتل مسلمٌ مسلماً. يذكر أنّه ذات مرّة حدث نزاعٌ بين المنصور بن علناس صاحب قلعة حمّاد، وأبي عبد الله محمّد بن يوسف، فأرسل ابن علناس رسالة إلى ابن تاشفين، يشرح له فيها الأسباب التي قادته إلى إشعال الحرب، فردّ عليه الأمير برسالة كتبها عنه أبو بكر ابن القصيرة، أبدى فيها عدم اقتناعه بتلك الحجج، ويبدو أنّ ابن تاشفين كان يعرف فساد واليه، وسوء سيرته، فعكس هذا في رسالته، إذ هاجمه فيها، ووصفه رجلاً باغياً ومعتدياً، ارتكب خطأً جسيماً بحربه التي شنّها على أبي عبدالله، يقول: (وردَ كتابُكَ الذي أنفذته من وادي منى منصرفكَ، من الوِجهة التي استظهرتَ عليها بأضّادك، وأجحفتَ فيها بطارِفِكَ وتلادِكَ، وأخفقتَ من مطلبكَ ومرادكَ، فوَقفنا على معانيهِ، وعرفنا المُصرّح به، والمشار إليه فيه، ووجدْناكَ تتجنّى وتُثْرب على مَنْ لم يستوجب التّثريب، وتجعل سيّئكَ حَسَناً، ومُنكركَ معروفاً، وخطأكَ صواباً بيّناً، وتقضي لنفسِكَ بفلجِ الخصامِ، وتوليها الحُجَّةَ البالغة في جميع الأحكامِ، ولم تتأوّل أنّ وراءَ كلٍّ حجّةٍ أدليْتَها ما يدحَضُها، وإزاء كلٍّ دعوىً أبرمتَها ما ينقُضها، ... ولولا استنكافُ الجدالِ، واجتنابُ تردُّدِ القيل والقالِ، لَنَصصْنا فصولَ كتابِكَ أوّلاً بأوّل ...) (١١٥). ثمّ يلقي الضّوء على أفعال المنصور، فيبيّن أنّه كان يجيّش الجيوش، ويبذل الأموال إسرافاً وتبذيراً، ويقرّب اللّصوص، وقطّاع الطّرق بغرض تثبيت حكمه، غافلاً عمّا ستأتيه به المقادير، (وأنتَ خلالَ ذلكَ تحتفلُ وتحشدُ، وتقومُ بحميّة وتقعدُ، وتبرقُ غضباً وترعد، وتستدعي ذؤبانَ العربِ وصعاليكَهم من مُبتعدٍ ومقتربٍ، وتعطيهم ما في خزائنِكَ جزافاً، وتُنفقُ ما كنزهُ أوائلُكَ إسرافاً،

وتمنحُ أهلَ العشراتِ مئينَ، وأهل المئينِ آلافاً، كلُّ ذلك تعتضدُ بهم، وتعتمدُ على تعصُّبهم لك وتألّبهم، وتعتقدُ أنّهم جنّتُكَ من المقاديرِ، وتذهلُ عمّا في الغيبِ من أحكام العزيزِ القديرِ) (١١٦).

ويستمر الكاتب في تقريع ابن علنّاس، فيتحدّث عمّا اقترفه مـن أذى بحـقّ المـسلمين، ويكشف عن معاضدته النّصارى، إذ قدّم التسهيلات لهم لضرب المسلمين، وفرّج كربتهم بعد أن كادت خيول المرابطين تسحقهم سحقاً، وهو فيما فعل أعظم أخلاصاً من صاحب روما لملّة الكفر التي ينتمي إليها، ولا يخفى ما في هذه المعاني من تجريح ومبالغة فـي وصـف ولاء المنصور لأهل الصّليب. يقول مشيراً إلى أحد قادة النّصارى: (ففرّجتَ عنهُ كربةً لم يظنُّها تنفرجُ، . ... وأخليتَ وجههُ لأذى المسلمين، يُبدئه ويعيدهُ، وبسطّتَ فيهم يـدَه، ... ولـو أنّ صاحبَ رومة المشتمل معه بعبادةِ الكفرِ والشِّركِ، المنتحل معه ما ينتحلُهُ من كلمـةِ الـزُّورِ والإفكِ، يكونُ مكانكَ من جوارِنا، ويُصاقبُ ما صاقبتَ قاصية دارنا، ماأتى من نصرِه فوق ما أتيتَ، ولا تولّى من انتشاله، والسّعيَ في استقلالهِ إلاّ بعضَ مـا تولّيـتَ، ولا أنحـى علـى المسلمين من مضارّه إلاّ بدون ما أنحيتَ، ولا بغاهم خَبالاً بأكثر ممّا بغيتَ) (١١٧). وأخيـراً يصوّر بغض المسلمين له، ونقمتهم عليه، ويحذّره العقاب الأخروي إن لم يُبادر إلى إصـلاح نفسه، والرّكون إلى الحقّ، والتزام الصّراط المستقيم، يقول: (وما في تلكّ الجزيرةِ، عصمها اللهُ، من صالحٍ ولا طالحٍ إلاّ يَعرضُكَ على اللهِ تعالى، ويرفعُ إليكَ فيكَ عقيرتهُ بالشّكوى، وكلُّ ما سُفكَ من دمٍ، وانتُهكَ من محرّمٍ، واستُهلِكَ من ذِممٍ، فإليكَ منسوبٌ، وعليكَ محسوبٌ، وفـي صحيفتِكَ مكتوبٌ، وموعدُ الجزاءِ غداً، وإنّه لقريبٌ، فانظرْ ما أنجَحَ أثرَكَ، وأربَحَ متجـرَكَ، وأصلحَ مورِدَكَ ومصدرك) (١١٨).

إنّ هذه الرّسالة والرّسائل التي سبقتها تسلّط الضّوء على جوانب مهمّة من سياسة ابـن تاشفين في إدارة شؤون الحكم، وضبط أمور البلاد، يمكن إجمالها فيما يلي:

أوّلاً: تبيّن أنّ ابن تاشفين كان يطبّق شريعة الإسلام في حكمه وإدارته، وكـان يـأمر عمّاله وموظّفيه بالتزامها.

ثانياً: كان يتابع مهامّ عمّاله وموظّفيه، غير غافل عمّا يفعلون، فيرسل أحيانـــاً العيـــون التي ترقب أفعالهم وتضبطها، وبخاصة أولئك الذين كان يرتاب في سلوكهم، أو يتناهى إلـــى مسامعه كلاماً ينتقد أداءهم، وطريقة عملهم.

ثالثاً: كان لا يعزل مباشرة موظّفاً أو عاملاً ثبتَ سوء مسلكه، وإنّما يرسل إليه الرّسائل أوّلاً، يكشف له فيها عن أخطائه، ويعظه، ويستتيبه، ثمّ يحذّره العقوبة.

رابعاً: كانت مصالح المسلمين، وأمنهم، ووحدتهم شغله الشّاغل، ومدار سياسته، فـــلا يُحابي أحداً أو يجامله على حساب شيء من ذلك.

خامساً: إذا ما اقتنع الأمير بصلاح موظّف أو عامل له، فإنّه كان يسانده، ويدافع عنـــه، ويحميه، فلا يسمح للدّسائس والوشايات أن تأخذ طريقها إليه.

سادساً: كان الأمير لايأخذ أحداً من عمّاله أو موظفيه بالظّنّة، وإنّما كان يحاول التّثبّـــت من المعلومات التي وصلته بحقّهم، وأن يأتي عليها بالدّلائل والبراهين، قبل أن يتّخذ الإجـــراء المناسب ضدّهم.

ولعلّ هذه السّياسة التي سار ابن تاشفين بهديها هي التي جعلت فترة حكمه مـــن أقـــوى وأزهى فترات التّاريخ الإسلامي بعامة، والأندلسي والمغربي بخاصّـــة. كمـــا هيّـــأت لـــه النّجاحات العظيمة المتكرّرة التي حقّقها إبّان فترة حكمه

شرعيّة حكمه الأندلس وأسباب خلعه ملوك الطّوائف

لقد حدث في الفترة التي تلت استيلاء الأمير يوسف على الأندلس أن ادّعـــى نفـــرٌ مـــن أعدائه (أنّه ليس حاكماً شرعياً، فذهب الفقيه ابن عربي إلى المشرق، وهناك التقى بـــالغزالي، وشرح له وضْع يوسف، وطلب تزويده بفتوى تثبتُ شرعيّتهُ وشرعيّة ولايته لأنّـــه يخطـــب للخليفة المستظهر) (١١٩). فاستجاب له الغزالي، وأرسل غير رسالة إلى ابن تاشفين، يـــؤازره فيها، ويدعم حكمه الأندلس، ويؤكّد شرعيّته، وشرعيّة ما فعل بملوك الطّوائف.

تناول الغزالي في إحدى رسائله الدّوافع التي حدتْ بالأمير إلى خلع أولئك الملوك، فبعد الزّلاّقة رأى هؤلاء أنّ ابن تاشفين أضحى عبئاً ثقيلاً عليهم، وخطراً يهدّد وجودهم وأمنهم واستقرارهم، إذ صار يتدخّل في شؤونهم الدّاخليّة، فعادوا إلى سابق عهدهم، يتنازعون، ويتدابرون، ويداخلون النّصارى، ويؤلّبونهم على أمير المرابطين. الذي وصلت إلى مسامعه أخبار خلافاتهم ومؤامراتهم، فعزم على التّخلّص منهم، وزاد من عزمه على تنفيذ هذا الأمر أنّ أهل الأندلس عادوا مرّة أخرى يستنصرونه، ويستنجدون به ليخلّصهم من ملوكهم، قبل أن تعود أمورهم إلى ما كانت عليه، يقول: (وذكر، يعني ابن عربي، أنّ أولئك الثّوّار، لمّا أيقنوا قوّةَ الأميرِ، وغلبَتَه لحزبِ المشركينَ، وسألهم رفعَ المظالمِ عن المسلمين، التي كانت مرتّبةً عليهم بجزية المشركين، وإمدادهم بها لهم، مُداراةً لبقاءِ أمرِهم، عادوا إلى ممالأةِ المشركينَ، وألقوا إليهم القولَ في جهةِ الأميرِ، وجرّؤوهم على لقائِهِ، وصحَّ ذلك عنده وعند المسلمين، فسأله المسلمونَ عند ذلك إنزالَ هؤلاءِ الثّوّارِ عن البلادِ، وتداركَها ومَنْ فيها من المسلمين قبل أن يسريَ الفسادُ، ففعلَ ذلكَ) (١٢٠).

ويرسل الإمام الغزالي رسالة أخرى إلى الأمير يوسف، تتضمّن فتوى بشرعية حكمه الأندلس، وتبيّن أنّ ما فعله بملوك الطّوائف ممّا يؤيّده الإسلام، ويدعو إليه. ويبني فتواه على غير أمرٍ، منها أنّ ابن تاشفين عقب دخوله الأندلس، أعلن الطّاعة للخليفة العبّاسي المستظهر، وكلّ مَنْ فَعَلَ فِعْلَه وجَبَتْ طاعتُهُ، لأنّها جزءٌ من طاعة الإمام، يقول: (إنّ يوسفَ على حقٍّ في إظهار شعار الإمامة للخليفةِ المستظهر، ولأنّ هذا هو الواجب على كلِّ مَن استولى على قطرٍ من أقطار المسلمين، وإذا نادى الملكُ المشمولُ بشعار الخلافة العبّاسيّةِ، وجَبَتْ طاعتُهُ على كلِّ الرّعايا والرُّؤساء، ومخالفتُهُ مخالفةٌ للإمامِ) (١٢١). ولهذا يحثّ الغزالي المسلمين على مساندة ابن تاشفين وحكمه، وإلى محاربة مَنْ خالفه أو تمرّد عليه، وبخاصّة تلك الفئة الباغية التي مالأت العدوّ من النّصارى، وألّبتهم عليه، يقول: (وكلّ مَنْ تمرّدَ واستعصى، فحكمُهُ حكمُ الباغي، ومِنْ حقِّ الأميرِ أن يردَّه بالسّيفِ، وأن يُقاتلَ الفئةَ المتمرِّدة على طاعتهِ، لاسيّما وقد استنجدوا بالنّصارى، وهم أعداءُ اللهِ، في مقاتلةِ المسلمينَ، وهم أولياء اللهِ، وأن يستمرَ في قتالهم حتى يعودوا إلى طاعةِ الأميرِ العادلِ المتمسّكِ بطاعةِ الخلافةِ العبّاسيّةِ،

ومتى تركوا المخالفةَ وجبَ الكفُّ عنهم، وذلك عن المسلمين دون النّصارى، وأمّا ما يظفرُ به من أموالهم، فمردودٌ عليهم، وعلى ورَثَتِهم، وما يُؤخذُ من نسائهم وذراريهم في القتالِ مبدورةٌ لا ضمانَ لها، وحكمُهم بالجملةِ في البغيِ على الأميرِ المتمسِّكِ بطاعةِ الخلافةِ، المستولي على المنابرِ والبلادِ بقوّةِ الشوكةِ، وحكم الباغي على نائب الإمامِ) (١٢٢). ثمّ يعود مرّةً أخرى ليؤكِّدَ شرعيّة حكم الأمير بعدما ظهر من صلاحه وتقواه، وحرصه على مصالح المسلمين، ويكشف عن معلومات جديدة إذ أشار إلى أنّ تقليد الخليفة العبّاسي له بولاية الأندلس قد تأخّر، ولكنّ ذلك لا يعني الخروج عن طاعته، أو عدم الاعتراف به حاكماً للأندلس، وبخاصّة وأنّ التأخير لم يكن سببه رفض الخليفة له، وإنّما مردُّه تأخُّر وصول الرّسول حسب، يقول: (فإنّه وإنْ تأخّرَ عنه صريحُ التّقليدِ لاعتراض العوايق المانعةِ من وصولِ المنشورِ بالتّقليدِ، فهو نائبٌ بحكمِ قرينةِ الحالِ، إذ يجب على إمامِ المصرِ أنْ يأذنَ لكلِّ مسلمٍ عادلٍ استولى عل قُطرٍ من أقطارِ الأرضِ، أن يخطُبَ له، وينادي بشعارِهِ، ويحمل الخلقَ على العدلِ والنّصفةِ، ولا ينبغي أن يُظنَّ بالإمامِ توقُّفٌ بالرّضا بذلك والإذن فيه، وإن توقَّفَ في كتبه المشهورةِ، فالكتبُ قد يعوقُ عن إنشائها وإيصالها المعاذيرُ. وأما الإذنُ والرّضا بعدما ظَهَرَ حالُ الأميرِ في العدلِ والسّنة، وابتغاء المصلحةِ للتّفويضِ والتّعيينِ، فلا رخصة في ترْكِهِ. وقد ظَهَرَ حالُ هذا الأميرِ بالاستفاضةِ ظهوراً لا يُشكُّ فيه. ...) (١٢٣).

علاقاته

يصوّر أدب الرّسائل في عهدي الطّوائف والمرابطين علاقات ابن تاشفين المختلفة، وبخاصّة علاقاته السّياسيّة، وهذا الموضوع هو أكثر الموضوعات تردداً في تلك الرّسائل. ووُجدت رسائل كاملة محورها ذلك الجانب من حياة الأمير يوسف. لقد تناولت الرّسائل علاقته بالنّصارى، وعلاقته ببعض الدّول الإسلامية التي كانت قائمة يومذاك، ومنها دول الطّوائف في الأندلس، ودولة الخلافة العباسيّة في بغداد، وتحدّثت كذلك عن علاقته بالعلماء والفقهاء.

أمّا علاقته بالنّصارى، فصوّرتها الرّسائل علاقات بغض وحرب ونزاع، وتهديد ووعيد. وقد أشير إلى ذلك في غير موضع من البحث[١٢٤].

وأكثر الأدباء في رسائلهم من الحديث عن علاقة ابن تاشفين بملوك الطّوائف، فصوّروها في حقب زمنية مختلفة، ورصدوا ما طرأ عليها من تطوّر وتغيّر. وأشار البحث إلى عدد منها آنفاً[١٢٥].

وتظهر تلك العلاقات بصورتين إيجابية وسلبية، أما الصّورة الإيجابية، فقد ظهرت بجلاء في الرّسائل المتبادلة بين الطّرفين قبيل واقعة الزّلاّقة. فقد كان ملوك الطّوائف يعوّلون كثيراً على مؤازرة ابن تاشفين لهم، للوقوف إلى جانبهم في جهاد النّصارى، فهو في نظرهم المخلّص المنتظر من واقع الذّلّ والخلاف الذي كانوا يعيشونه، ولهذا أجمعوا على الاستنجاد به، وفوّضوا الأمر إلى المعتمد بن عبّاد، فراسله غير مرّة، وجاز البحر إليه، واجتمع به، فأفضت الاجتماعات والرّسائل عن معركة الزّلاقة التي هُزم فيها العدوّ هزيمة نكراء. وقد زاد هذا الانتصار من تعلّق ملوك الأندلس بالأمير يوسف، فصار في نظرهم السّيف الذي يضربون به مَن تجرّأ عليهم من الأعداء، وإن لم تستمر هذه النّظرة طويلاً عند بعضهم.

وهذه النّظرة تفصح عنها رسائلهم التي بعثوها إلى ابن تاشفين، واقتصرت على المعتمد بن عبّاد، والمستعين بن هود، والمتوكّل بن الأفطس، وعبد الله بن بلقّين صاحب غرناطة.

لقد نظروا إليه نظرة إجلال وإكبار واحترام، فهو في رأيهم القائد الهُمام الذي بدأ جهاد الأعداء، ومهّد الطريق للخلاص منهم، ونزع الخوف والرّعب من قلوب المسلمين، وهو دائم الاستجابة لنداءاتهم، سريع إلى ذلك، حريص عليهم، وعلى ديارهم. ولهذا تكرّرت عبارة "حليفنا الأعزّ" في رسائلهم. والأمثلة على ذلك كثيرة منها الرّسالة التي كتبها أبو بكر ابن القصيرة عن المعتمد بن عباد إلى المعتصم بن صُمادح حاكم المريّة، يخبره فيها بجهاده إلى جانب ابن تاشفين على أبواب حصن لييط، يقول: (وغيرُ ذاهبٍ على أحدٍ ما تقتضيه هذه الحال المُبْهجة بما يُخالفها على علوّ كعب الإسلام، وينصبّ على الشِّركِ وأهله من سوء الانتقام، بعد البلوغِ من الشُّكر للهِ تعالى إلى الغايةِ القُصوى، من اختصاص أمير المسلمين،

وناصر الدّينِ أبي يعقوب، حليفنا الأعزّ، أيّده اللهُ، بقسمٍ من الشُّكرِ وافرٍ، وتجشَّمَ فيه المجاشـمَ حتى أذلَّ من المشركينَ العزيزَ، وأعزَّ من المسلمينَ الذّليلَ. ثمّ لم يشغلْهُ دام تأييدُهُ عن صـلةِ أيدينا بعدَ ذلكَ الأمرِ، ولا ثناهُ عن النّظرِ لنا عُذرٌ) (١٢٦). وتجلّتْ هذه المعاني في الرّسالة التي كتبها ابن الوكيل(١٢٧)عن المعتصم بن صمادح ردّاً على رسالة المعتمد(١٢٨).

وبعد أن حقّق الأمير يوسف انتصاراته العظيمة على النّصارى في الأندلس، وتمكّن حبّه من قلوب النّاس، صار ملوك الطّوائف يهابونه، ويحذرونه، وزادت خشيتهم منه بعد أن أيقنوا أنّه مستولٍ على ممالكهم لامحالة، فراسلوه يخطبون ودّه، ويسألونه (الإعراض عنهم، وأنّهـم تحت طاعته، فكتب عنهم كاتبٌ من أهل الأندلس كتاباً، وهو: "أمّا بعدُ، فإنّـكَ إنْ أعرضـتَ عنّا نُسبتَ إلى كرمٍ، ولم تُنسبُ إلى عجزٍ، وإن أجبْنا داعيكَ نُسبْنا إلى عقلٍ، ولم نُنْـسبْ إلـى وهنٍ، وقد اخترنا لأنفسنا أجملَ نِسبتنا، فاختر لنفسِكَ أجمل نسبتكَ، فإنّكَ بالمحلِّ الذي لا يجبُ أنْ تُسبقَ فيه إلى مكرُمة، وإنّ في استبقائكَ ذوي البيوتِ ما شئتَ من دوامٍ لأمـركَ مثبـوت، والسّلام) (١٢٩).

ووقف ابن تاشفين من ملوك الطّوائف موقفاً إيجابياً، وبخاصّة حينما لمس مـنهم رغبـةً حقيقيّة في التّغيّر والصّلاح، وفي وحدة المسلمين، وجهاد عدوِّهم مـن النّـصارى. ولهـذا تُصوِّره الرّسائل حريصاً عليهم، وناصحاً لهم، وراضياً عنهم ما داموا يختارون ذلك النّهج في حكمهم، ويشكرون اللهَ على النّعمة التي ينعمون بها، وهذا ما تعبّر عنه الرّسالة التـي كُتبـتْ عنه إلى أولئك الملوك، ردّاً على رسالتهم المُشار إليها آنفاً، (بسم اللهِ الرّحمن الـرّحيم، مـن يوسف بن تاشفين، سلامٌ عليكم، ورحمةُ اللهِ وبركاته، تحيّة مَن سالَمَكم وسلّمَ عليكم، وُإنّكم ممّا في أيديكم من المُلكِ في أوسعِ إباحةٍ مخصوصينَ منّا بأكرمِ إيثارٍ وسماحةٍ، فاستديموا وفاءنـا بوفائكم، واستصلحوا إخاءنا بإصلاحِ إخائكم، والله وليُّ التّوفيق لنا ولكم) (١٣٠).

وتظهر الرّسائل علاقة ابن تاشفين الحميمة بعدد من ملوك الطّوائف أكثر من غيـرهم، وفي مقدّمة هؤلاء المعتمد بن عبّاد، فقد كان الأمير يقدّره، ويثق به، وينزله منزلته اللائقـة، ومردّ ذلك ما رآه من رغبة المعتمد الحقيقية في وحدة الصفّ الإسلامي، والوحدة معـه فـي

جبهة واحدة لجهاد الأذفونش وأعوانه. فهو الذي بادر إلى الاستنجاد به بنفسه، وشاركه في جهاد النّصارى في الزلاّقة وغيرها من المعارك، وكان دائماً رهن إشارته، وطوع أمره. ولهذا كان الأمير يوسف لاتفوته مناسبة إلاّ ويشيد به فيها، ففي رسالته التي أرسلها إلى تميم بن المعزّ في المهديّة عقب الزّلاقة، يصوّر تلك العلاقة والوحدة التي جمعته بابن عبّاد، وغيره من ملوك الطّوائف قبيل المعركة، فيقول داعياً له: (ووصلْنا أيدينا بالريّس الأجلّ المعتمد على الله، المؤيّد بنصر اللهِ، واستوثقنا منه غاية الاستيثاق...) (١٣١)، ثمّ يمدح المعتمد في الرّسالة ذاتها ويصف شجاعته وبأسه، وعدم مبالاته بالعدوّ، فيقول: (وتَخلَّصَهُ اللهُ بنيّته في المسلمين، وبلّغهُ أُمنيتَهُ، بعد أن وقف وقفة بطلٍ مثله، لا أحد يرد عليه، ولافارس من فرسانه وعبيده يرجع إليه، لا يروعُه أحدٌ منهم فيُهزَمُ، ولا يهابهم فيسأم) (١٣٢) ولهذا كلّه حين أرسل إلى قائده في الأندلس سير بن أبي بكر يطلب إليه خلع ملوك الطّوائف، أمره أن يؤخّر المعتمد ودولته، فلا يهاجمه إلاّ إذا أظهر العصيان(١٣٣).

وربطت ابن تاشفين علاقة حميمة بالمستعين بن هود صاحب سَرَقُسطة، ذلك أنّ الأخير راسله غير مرّة، يخطب ودّه، فرعى الأمير له صنيعه، فأبقاه في الحكم لمّا خلع ملوك الطّوائف، ولم يستولِ على بلاده(١٣٤). وكان يرسل إليه الرسائل ويلاطفه، ومنها الرسالة التي بعثها إليه مع ولده عبد الملك لمّا زاره، يدعو فيها الأمير إلى الوحدة والتّضامن.

تصوّر هذه الرّسالة العلاقة بين الجانبين، فابن تاشفين يدعو فيها للمستعين بالرّفعة والتّأييد من الله عزّ وجلّ، ويثني عليه وعلى سلفه، ويتحدّث عن مآثره التي صوّرها آيات تُتلى في مرّاكش، يقول: (من أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى المستعين باللهِ أحمد بن هود، أدام اللهُ تأييده، كتبنا إليكَ، والله عزّ وجلّ يُوالي أيّام سعدِكَ، ويعالي أعلام مجدكَ، ويُطيلُ في طاعتِهِ أحسنَ ما تمنّاهُ عمرُكَ، ويشدُّ بتقواهُ أزركَ، ويُجري على كلِّ لسانِ صدْقٍ ذكركَ من حضرةِ مرّاكشَ، حيثُ تُتلى آياتُ شرَفِكَ، ومآثرُ السّادةِ القادةِ سلَفكَ) (١٣٥).

ثمّ يصوِّر مكانة المستعين في نفسه وقلبه، فيبيّن أنّ له الحظوة الكبرى، والعهد الصحيح المتين، ويتحدّث عن وفد المستعين الذي زاره، ويتكوّن من ولده ووزيريه، مشيراً إلى

مضمون الرسالة التي كانت بحوزتهم، ويختم كتابه بالموافقة على طلب المستعين إليه وهو التّعاهد على ما يرضي الله سبحانه وتعالى، يقول: (وأمّا الذي عندنا، أيّدكَ اللهُ لجانبكَ الكريمِ، ومجدِكَ العميمِ، ومحلَّكَ المعلوم المفهوم، فؤادٌ صريحٌ، وعقدٌ في ذاتِ اللهِ تعالى صحيح، وَوَرَدَنا، أدامَ إقبالَكَ، وأجرى إلى غايةِ الإفضالِ آمالَكَ، نشأةُ السِّيادةِ والفضل، والنّباهةِ والنُّبل، أبو مروان عبد الملك ابنكَ ولادة وتنشُّباً، وابننا ودادةً وتقرُّباً، زادَ اللهُ به عينُكَ قُرّةً، ونفسَكَ مسرَّةً، ومعه وزيراكَ أبو الأصبغ وأبو عامر، أكرمهما اللهُ بتقواه، وكلاًّ وفيناهُ حقَّ نصابِهِ، وآتيناه برّهُ من بابِهِ، وتلقَّينا تكرمةً بمقتضى دواعيهِ وأسبابِهِ، وأدّيا إلينا كتابَكَ الخطيرَ، المقبولَ المبرورَ، فوقفنا به على وجه شخوصِهما، ... فألقينا إليهما مراجعةً عن ذلكَ ما لقّناهُ وسفرنا لهما على وجهِ مقصدِنا فيه حتى يستبيناهُ، من جملةِ الوِفاق، وجماعِ الانتظامِ في سلكِ ما يُرضي اللهَ تعالى والاتّساق، إن شاء اللهُ) (١٣٦).

وتتمثّل الصّورة السّلبية للعلاقة بين الجانبين في الرّسائل التي صدرت عن ابن تاشفين عقب الزلاّقة، وبعد أن اتّخذ قراره بخلع ملوك الطّوائف. ففيها يظهر الأمير ناقماً عليهم، غاضباً من أفعالهم، وعودتهم إلى سيرتهم الآولى، واستعانتهم بالنّصارى لينصروهم عليه.

ويبدو ذلك بجلاء في رسائله التي بعثها إلى عبد الله بن بلقّين حاكم غرناطة، فقد ساءت العلاقة بينهما بعد حصار حصن لييط سنة ٤٨١ هجرية، إذ راح ابن بلقّين يبني الحصون حول غرناطة خشية أن يهاجمه الأمير، وعاقد الأذفونش، ودفع له الجزية لقاء أن يحميه منه.

وقد برّر الأمير عبدالله مسلكه في سيرته، ولكنّ سعي الوشاة به كان أقوى من أن يركن الأمير يوسف إلى تبريره، ممّا أثار سخطه فبعث إليه الرسالة تلو الأخرى، يتهدّده ويتوعده، ويصوّره فيها مراوغاً كذّاباً، ومتجنّياً على الرّعيّة، ويلمح له برغبته في خلعه، يقول في إحداها: (أمّا مداهنتُكَ، وقولُك الباطلَ، قد علمْناهُ، وسنعلمُ عن قريبٍ كيف ترضى الرّعيّةُ، وما تصنعُ إذا زَعمتَ أنّكَ نظرْتَ لها، ولا تُسوِّف، فإنّ هذا قريبٌ غيرُ بعيدٍ) (١٣٧).

ويتحدّث ابن بلقّين عن الأسباب التي جعلت ابن تاشفين ينقم عليه ويتغيّر تجاهه، فيذكر أنّه حين توجّه الأمير إلى الأندلس للاستيلاء على غرناطة، اجتمع (بالمعتمد وسأله عمّا لهج

النّاس به من مداخلة الرّوميّ، فشهد بذلك) [١٣٨]، عندئذ أرسل إليه الأمير رسالة تعبّر عن غضبه مضمونها (أقبلْ إلينا ولا تتأخّرْ) [١٣٩].

ويؤكّد ابن بلقّين نفسه أنّ ابن تاشفين لم يكن يهدف إلى قتله، وإنّما إزاحته من الحكم، ويبدو ذلك في الكتاب الذي أرسله إليه، وهو يحاصر غرناطة، (إنْ كنتَ استوحشتَ من النّزولِ إلينا، فتخيّر من بلادِكَ موضعاً تصيرُ فيه، ولتكنْ غير غرناطة، لنرى فيها رأينا) [١٤٠].

ويشيد الأمير عبدالله بحسن معاملة ابن تاشفين له عقب أسره ونفيه، إذ أرسل إليه الأخير ثلاثمائة دينار وكتاباً نصُّه: (لا أنساكَ ما بقيتُ) [١٤١]. ويقول ابن بلقّين مصوّراً تلك المعاملة: (فلقد كان أرفقَ بي بعدَ اللهِ من كلِّ أحدٍ) [١٤٢].

إنّ هذه الرّسائل تصف الواقع دون تزييف أو مبالغة، لأنّها وردت في سيرة رجل عاصر الأحداث، وكان قطب رحاها، ومن هنا تكمنُ أهميّتها في تصوير علاقته بابن تاشفين، وبيان ما طرأ عليها من تطوُّر.

أمّا علاقة ابن تافشين بالدّولة العبّاسيّة وخليفتها، فتبرزها الرّسائل متينة وإيجابيّة، فقد حرص الأمير يوسف بعد أن استولى على الأندلس أن يأخذ شرعيّةً بذلك من الخليفة العبّاسيّ، فأعادَ الخطبة له على منابر الأندلس، وأخذ البيعة له من المسلمين، وهذا ما تعبّر عنه رسالة الإمام الغزالي إلى ابن تاشفين، التي ذكر فيها ما سمعه من ابن عربي (.... وتزيين منابر المملكةِ الجديدةِ والقديمةِ بالخطبة لأميرِ المؤمنين، أعزّ اللهُ أنصارَه، وإلزامه للمسلمين البيعة، وكانوا من قبلُ منكفين عن البيعةِ، والنّداءِ بشعارِ الخليفةِ) [١٤٣].

وعدّ الأمير نفسه والياً من ولاة الدّولة العبّاسيّة، فأرسل إلى خليفتها يطلب تقليداً بحكم المغرب والأندلس حتّى يكتسب حكمه لها الصّبغة الشّرعيّة، فلا يعترض عليه أحد[١٤٤]. وقد أرسل إليه الخليفة العبّاسيّ القائم بأمر اللهِ رسالة طويلة كتبها عنه أمين الدّين أبو سعيد[١٤٥] تتضمّن موضوعات شتّى، ومنها عهده له بإمارة الأندلس، ونظرته الإيجابيّة إلى الأمير.

لقد كشفت الرّسالة عن الأسباب التي دعت الخليفة العبّاسيّ إلى إرسال التّقليد بولاية المغرب والأندلس لابن تاشفين، وهي تقواه وصلاحه، وسيرته العطرة التي لهجت البلاد بذكرها، هذا فضلاً عن إظهاره الطّاعة للخلافة العبّاسيّة، يقول: (هذا ما عَهِدَ به عبدُاللهِ ووليُّه القائم بأمرِ اللهِ أمير المؤمنين إلى فلان حين انتهى إليه ما هو عليه من ادّراع جلابيب الرّشادِ، في الإصدارِ والإيرادِ، واتّباع سننِ مَنْ أبدى، وأعادَ فيما يجمع العاجلةَ والمعادِ ...، واتّضحَ ما هو متشبِّثٌ به من صحّةِ الدّينِ واليقينِ، والمواظبةِ من اكتسابِ رضى اللهِ تعالى على ما هو أقوى الظّهيرِ والمعينِ، في ضمنِ ما طوى عليه ضلوعَهُ، وأدامَ لهجةُ به وولوعه من موالاةٍ لأميرِ المؤمنينَ، يدينُ اللهُ تعالى بها، ويرجو النّجاةَ من كلِّ مخوفٍ باستحكامِ سعيها. ...)[١٤٦]. ثمّ يتحدّث الكاتب عن الأمور التي عهد الخليفة بها لابن تاشفين، فيقول: (فولاّه الصّلاةَ بأعمالِ المغربِ، والمعاون والأحداث[١٤٧]، والخراج، والضّياع، والأعشارَ، والصّدقات، والجوالي، وسائر وجوه الجبايات، والعرضَ والعطاءَ، والنّفقةَ في الأولياء، والمظالمَ، وأسواق الرّقيق، والعيارَ في دورِ الضّربِ، والطّرُز، والحسبة) [١٤٨]. ويحثُّ الكاتبُ، على لسان خليفته، ابنَ تاشفين على تقوى اللهِ، وطاعة الخليفة، والمداومة على الصّلاة في المساجد، وأمره ببنائها وعمارتها، وحثِّ المسلمين على ارتيادها، وطلب إليه المحافظة على الزّكاةِ، وأخذِها من أغنياء المسلمينَ، وإعطائها لفقرائهم، كما حثّه على الاعتناءِ بالمسلمين، والإحسان إليهم، والعدل بينهم، وعلى التزام الشّورى في حكمه، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكرِ، ومحاربةِ كلِّ ما يخالف الشّريعة الإسلاميّة، والمحافظة على ثغور المسلمين ومراقبتها، ونشْرِ الأمن في البلاد، وضبط الأمور فيها، وأن يختار لإدارتها أهلَ الكفاءة والأمانة. ويختم رسالته بأن دعا الأمير يوسف إلى التزام أوامر الخليفة، وإلى أن يظلّ طوعَ أمره، وأن تظلَّ العلاقات قائمة بينهما[١٤٩].

وكان ابن تاشفين يجلُّ العلماء والفقهاء، (ويكرمهم، ويحكّمهم في بلادهِ، ويصدر عن آرائهم) [١٥٠]، ويطلب إلى عمّاله وموظّفيه الامتثال لهم. ويؤكّد ذلك أنّه لم يكن يتّخذ القرارات المصيريّة، ويقدم على تنفيذها إلاّ بعد أن يضفي العلماء والفقهاء شرعيّة عليها، وهذا ماحدث، على ما مرّ آنفاً، حين تحرّك لخلع ملوك الطّوائف، وحين أعطى ولاية العهد

لابنه عليّ. ولهذا توافد العلماء إلى حضرته، ورغب كبارهم بالوفود إليه، يقول ابن خلّكــان: (وبلغني أنّ الإمامَ، حجّة الإسلامِ، أبا حامدٍ الغزاليّ، تغمّدهُ اللهُ برحمتِهِ، لمّا سَمِعَ ما هو عليــه من الأوصاف الحميدةِ، وميلِهِ إلى أهلِ العلمِ، عزَمَ على التّوجّهِ إليهِ، فوصل إلى الإســكندريّة، وشرعَ في تجهيزِ ما يحتاجُ إليهِ، فوصله خبرُ وفاتِهِ، فرجع عن ذلك العزمِ) (١٥١).

لقد كان الإمام الغزالي متعلّقاً بابن تاشفين، دائم الإشادة به، ويؤازره في خطواته كلّهــا، ولهذا أفتاه بخلع ملوك الطّوائف، وبشرعيّة حكمه الأندلس، وناشد الخليفة العبّاسيّ أن يــضفي على حكمه الشّرعيّة، وأن يمنحه تقليداً بذلك، ففعل(١٥٢). ومن هنا راسله الغزالي غير مــرّة، فتحدّث في رسائله عن المعاني السابقة، وتناول موقف ابن تاشفين من العلماء، فمن ذلك قوله في إحداها مشيراً إلى ابن عربي: (ثمّ أضافَ إلى ذِكْرِ ذلكَ ما شاهدهُ من تلكَ السَّجيَّة الكريمة في إكرامِ العلماءِ، وتوقيرِه لهم، وتنزيهه باسمهم، واتّباعهِ لما يُفتونَ إليه من أحكام اللهِ تعالى، وأوامرِه ونواهيهِ، وحملِهِ عمّالَه على السَّمعِ والطّاعةِ لهم) (١٥٣).

ومن العلماء الذين ساندوا ابن تاشفين وآزروه محي الدّين بن عربي، الذي ارتحل إلــى العراق، يدعو للأمير يوسف، ويذيع سجاياه هناك، ويصف جهاده، وتوحيده المــسلمين فــي الأندلس، ويشيد بعدله وإحسانه، فلقيتْ دعوته صداها، إذ حظيتْ شخصيّةُ ابن تاشفين بإعجابِ الخليفة العبّاسيّ، والإمام الغزالي. وقد أطنب الأخير، في بعض رسائله، في الحــديث عــن الدّور الذي قام به ابن عربيّ في العراق وغيرها، فقال: (ولم يبالغْ أحدٌ في بثِّ مناقبِ قــومٍ مبالغةَ الشَّيخِ الفقيه أبي محمّد في بثِّ مناقبِ الأمير وأشياعِهِ المرابطين. ولقد شاعَ دعاؤُهُ في المشاهدِ الكريمةِ بمكّةَ، حرسها اللهُ، لحضرةِ الأميرِ وجماعةِ المرابطينَ، ولم يقنعْهُ مــا فعلَــهُ بنفسِهِ إلى أن كلَّفَ جميعَ مَنْ رجا بركةَ دعائهم، الدّعاءَ لهم فــي تلــك المــشاهدِ الكريمــةِ، والمناسِكِ العظيمةِ) (١٥٤).

ويظهر فنّ الرّسائل أنّ بعض العلماء كانوا يعترضون على بعض تصرّفات ابن تاشفين، يذكر المؤرّخون أنّه أراد الجهاد، فطلب (من أهل البلادِ المعونة على ما هو بصددهِ، فوصــل كتابُه إلى المريّة في هذا المعنى، وذكر فيه أنّ جماعةً أفتوهُ بجواز طلبِ ذلك اقتداءً بعمر بن

الخطّاب، رضي اللهُ عنه، فقال أهل المريّةِ لقاضي بلدِهم أبو عبدالله بن الفراء(١٥٥) أن يكتبَ جوابَه، وكان هذا القاضي من الدّين والورع على ما ينبغي، فكتب إليه) (١٥٦) رسالة رفض فيها أن يقدِّم أهل المريّة المعونة للأمير حتى يحضر إلى المسجد، فيحلف أنّه لامال عنده أو في بيت مال المسلمين، عندئذ تجب معونته، واستشهد على ذلك بما فعله عمر بن الخطّاب، يقول فيه (...، وما اقتضاها عمرُ، يعني المعونة، حتى دخل مسجدَ رسولِ الله، صلّى اللهُ عليه وسلّمَ، وحلف أن ليس عنده درهمٌ واحدٌ من بيتِ مالِ المسلمين ينفقهُ عليهم، فلتدخلِ المسجدَ الجامعَ هنالكَ بحضرةِ أهلِ العلمِ، ، وتحلفَ أن ليس عندكَ درهمٌ واحدٌ، ولا في بيت مال المسلمين، وحينئذٍ تستوجب ذلكَ والسَّلام) (١٥٧).

ومن الجدير ذكره أنّ بن تاشفين كان على علاقة سيّئة برؤساء بعض القبائل والمناطق في المغرب، يروي المؤرّخون أنّه حاول غير مرّة قتْلَ محمّد بن إبراهيم الكزولي (سيّد قبيلة كزولة، ومالك جبلها)، وأنفق الأموال الطّائلة لذلك، إلاّ أنّ محاولاته باءت بالفشل (١٥٨). ولمّا علم الكزولي بالأمر، كتب إلى الأمير يوسف كتاباً، يتحدّث فيه عن محاولاته تلك، ويسمه بالطّمع، وعدم القناعةِ، وحبِّ الشّر والعدوان، ويطلب إليه الكفّ عن ذلك، يقول فيه: (إنّكَ قد أردتَ قتلي بكلِّ وجهٍ، فلم يُظفركَ اللهُ بذلك، فكُفَّ عن شرِّكَ، فقد أعطاكَ اللهُ المغربَ بأسرهِ، ولم يعطني غير هذا الجبل، وهو في بلادِكَ كالشَّامةِ البيضاءِ في الثّورِ الأسودِ، فلم تقنعْ بما أعطاكَ اللهُ عزّوجلّ) (١٥٩). (فلمّا رأى يوسف أنّ سرَّه قد انكشفَ، وأنّه لا يُمكنه في أمرِهِ شيءٌ لحصانةِ جبلِهِ، أعرض عنه وتركَهُ) (١٦٠).

جيش بن تاشفين

إنّ الجيش إذا كانت صورته مشرقة، وكان منظّماً، وذا مستوى عالٍ من الخبرة والتّجهيز والتّدريب، فإنّه بالضّرورة يعكس صورة قائده. وهذه الصّورة هي التي قدّمها فنّ الرّسائل في عهدي الطّوائف والمرابطين للجيش الإسلامي، الذي قاده ابن تاشفين إلى ساحات الوغى، فحقّقا معاً الإنجازات العظيمة التي غيّرت مسار التّاريخ الأندلسي في تلك الحقبة من الزّمن.

لقد رسم الأدباء صوراً متشابهة لذلك الجيش تنبىء عن كفاءته العالية، وشجاعته في خوض غمار الحروب، وحسن تنظيمه، وتصوّر عدده وعدّته، وما أنزله بجيوش الأعداء من هزيمة. وبرزت هذه المعاني بجلاء في الرّسائل التي كُتبتْ عقب الزّلاّقة. ومنها رسالتان كتبتْ على لسان ابن تاشفين إلى العدوة المرّاكشيّة(١٦١). ورسالتان كتب إحداهما أبو بكر ابن القصيرة(١٦٢)، والأخرى يحيى بن عبد الكريم الشّنتوفي(١٦٣).

وسيتناول هذا البحث الرسالة التي بعثها بن تاشفين إلى تميم بن المعزّ في المهديّة، فهي كافية لإبراز ملامح تلك الصّورة. ففيها يسهب كاتب الأمير في الحديث عن جنود المسلمين الذين شاركوا في تلك المعركة، فيصوّرهم أسوداً في البأس والشّجاعة، معتادين على القتال، متعطّشين إليه. أعدادهم كثيرة، وأعمارهم متنوّعة، فيهم الشّيب والشبّان، والكهول والفتيان، يقول: (وجوّزنا للعدوِّ أسوداً ضاريةً، وسباعاً عاديةً، شيباً وشبّاناً، بسواعدٍ قويّةٍ، وقلوبٍ في سبيلِ اللهِ نقيّةٍ، قد عرفوا الحروبَ وجرّبوها، فهي أمّهم وهم بنوها، يتلمّظون تلمُّظَ الفهود، ويزأرون إليها زأرَ الأسودِ، فشحنّا بهم القواربَ، وأوسعناهم على ظهور المراكب) (١٦٤). ويقول: (ثمّ اتبعناهم جيشاً بعد جيشٍ، بخيولٍ كالفحولِ عليها الكهولُ، وعددٍ من كلِّ أمرد، على أجرد، يتسابقونَ إلى اللّقاءِ في الفضاءِ) (١٦٥). ويبيّن الكاتب أنّ هؤلاء المقاتلين هم جند الله، خرجوا بنيّات صادقة للجهاد في سبيله، ورفْعِ كلمته، وإعلاء دينه، قاتلوا قتال الأبطال طلباً للشّهادة، ولهذا آزرتهم الملائكة، وربط اللهُ على قلوبهم، وهو في ذلك كلّه يصف جرأتهم وصمودهم في وجه العدوّ، وعِدَدهم الحربية، ووسائلهم القتالية، وبخاصة الخيول القويّة، (فخرجنا من وراءِ الشِّعبِ كقطع اللّهبِ بجميع من معنا على الخيلِ المسوّمةِ العِرابِ، يتسابقنَ الطّعنَ والضّربَ، فلمّارأونا، ووقعتْ أعينهم علينا، ظنّوا أنّ الدّائرةَ فينا ولدينا، وأنّا طُعْمُ أسيافهم، ولقاءُ رماحهم، فكبّرنا وكبّرَ الكلُّ معنا، مبتهلينَ للّهِ وحدهُ، لاشريكَ له، ونهضنا للمَنونِ الذي لا بدَّ منه، ولا محيصّ لإحدٍ عنه، وقلنا هذا آخرُ يومِنا من الدُّنيا، فلتموتوا شهداءَ، فحملوا علينا كالسِّهامِ، فثبّتَ اللهُ أقدامنا، وقوّى أفئدتنا، والملائكةُ معنا، واللهُ تعالى وليُّ النّصرِ لنا) (١٦٦). ثمّ يصوِّر بلاءهم في الزّلاقة، فيلقي الضّوء على أسلحتهم وقوّتها، وما فعلته بالعدوِّ من قتلٍ وأسرٍ ونهبٍ، فانتثرت جثث جنوده في أرض المعركة، ومَنْ نجا منهم،

أضعف الفزع قوته عن المقاومة، فنكص عن المواجهة، وفرّ لايلوى على شيء، فضاقت عليه الأرضُ بما رَحُبتْ. والمسلمون يومذاك منيعو الجانب، يصولون ويجولون بعــزّة وفخــار، يقول مشيراً إلى النّصارى: (فولّوا هاربينَ، وفرّوا ذاهبينَ، وتساقطَ أكثرُهم بقدرِ اللهِ تعــالى دون طعنةٍ تلحقُهُ، ولا ضربةٍ تُثخنُهُ، وأضعفَ الرُّعبُ أيديهم، فطعنُهم بالسَّمهريَةِ دون الــوخز بالإبرِ، وضاقتْ بهم الأرضُ بما رحُبتْ، حتّى إنّ هاربَهم لا يرى غيرَ شيء إلاّ ظنَّهُ رجــلاً، وفتكتْ فيهم السُّيوفُ، على رَغمِ الأنوفِ، فواللهِ لقد كانت تقعُ على الدُّروعِ فتفريهــا، وعلــى البيضاتِ فتبريها، وزرقوا الرّجّالة منّا على خيلهم الرّماحِ، فشكّوهم بها، فرمحت بهم فما كنتَ ترى منهم فارساً إلاّ وفرسهُ واقفٌ على رأسه، لا يستطيعُ الفرارَ، الكلُّ يجرُّ عنانَهُ كأنّهُ معقلٌ بعقالهِ، ونحن راكبونَ على الجوادِ الميمونِ، العربيِّ المــصونِ، الــسّابقِ اللاّحــقِ، المعــدّل الحقائق، وما منّا إلاّ من له جرنازٌ فيه سيفانِ، وبيدنا الثّالثُ، عسى أن يحــدثَ مــن حــادثٍ، فصاروا في الأرضِ مجدّلينَ موتى معفّرينَ) (١٦٧).

وتظهر سخرية الأديب من الأعداء في أجمل صورها إذ وصف ذلّهم، وشدّة رعبهم، وما نتج عنه من تعطّل السلاح في أيديهم، وعجزهم عن مقاومة المسلمين، الذين كانوا يقتحمــون عليهم معسكراتهم، فيقتلون وينهبون دون أن يُحرّك أولئك ساكناً. ويسخر أيضاً من قائــدهم الأذفونش، الذي قُتل أكثر أعوانه، وأصيب نفسه في المعركة، فتركها مولّياً الأدبار، مع مَــن تبقّى من جيشه، وتحصّنوا جميعاً في قُلل الجبال، يقول معبّراً عن ذلك: (واستأصلنا أكابرّهم، وحللنا دونَ أماطيلهم وأمانيهم، وما ربُّكَ بغافلٍ عمّا يعمل الظّالمونَ، وانقطعَ من عسكرهم نحو ألفي رجلٍ أو أقلَّ أو أكثر، والأذفونشُ فيهم على ما أخبرنا قد أُثخنوا جراحاً بإزاء محلاّتهــم، يرتادونَ الظّلامَ للهروبِ في المقامِ، والله لقد كان الفرســانُ والرّجالــة يــدخلونَ محلاّتهــم، ويعثرونَ في أخبيتهم، وينتهبونّ أزودتَهم، وهم ينظرونَ نظرَ التّيوسِ إلى شفارِ الجزّارينَ، إلى أن جنَّ اللّيلُ وأرخى سدولَهُ، ولّوا هاربينَ، وأسلموا رحايلهم صاغرين)، (فكم من دلاصٍ على البقاعِ ساقطة، وخيولٍ على البقاعِ رابضة، ولقد ارتبط كلُّ فارسٍ منّا الخمسة أفراسٍ أو أزيدَ. وأمّا البغالُ والحميرُ فأكثر من ذلك، وأمّا الثّيابُ والمتاعُ فناهيكَ، والأسرّة بأوطيــةِ الحريــرِ، والثّياب والأوبار عدد ليلهم) (١٦٨).

الهوامش

(١) نفح الطيب، ٢٠٥/١، وانظر ابن بسام، الذخيرة، ق٣م١/١٨٨-١٨٩، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص١٤٤.

(٢) أعمال الأعلام، ص١٤٤، نفح الطيب، ٢٠٥/١.

(٣) لذخيرة، ق٤م١/١٧٢، أعمال الأعلام، ص١٤٤، نفح الطيب، ٢٠٥/١.

(٤) انظر ابن عذارى، البيان المغرب، ١٧٥/٣، ٢١٢-٢١٣، ابن الأثير، الكامل، ١٤٢/١٠، ابن دحية، المطرب، ص١٢، مطمح الأنفس، ص١٧٠، أعمال الأعلام، ص٨٤، ١٥٠-١٥١، ١٧١، ١٧٧-١٧٨، ١٨١، نفح الطيب، ٢٠٧/٢، ١٢١/٦-١٢٣.

(٥) انظر البيان المغرب، ٢٤٤/٣، أعمال الأعلام، ص١٥٦.

(٦) البيان المغرب، ٢٢٢/٣.

(٧) الذخيرة، ق٢م١/٢٥٤.

(٨) انظر البيان المغرب، ٢٣٩/٣. ابن بلقّين، التّبيان، ص١٠١، وانظر علاقة ملوك الطوائف بالنصارى في: الذخيرة، ق٣م١/٤٣، ق٢ م١/٢٤٨، ٢٥٣-٢٥٤، البيان المغرب، ١٧٧/٣، ٣٢٣، ٣٨٠، أعمال الأعلام، ص١٧٨، ١٩٧، ٢٤٢، ٣٨٠، تاريخ ابن خلدون، ق١م٦/٣٨٢، الناصري، الاستقصا، ٣٣/٢.

(٩) انظر أعمال الأعلام، ص١٧١، ١٨٤.

(١٠) الذخيرة، ق٢م١/٢٤٩.

(١١) انظر الذخيرة، ق٢م١/٢٤٩، الكامل، ١٤٢/١٠، أعمال الأعلام، ص١٨١، نفح الطيب، ١٢١/٦-١٢٣.

(١٢) انظر ابن سعيد، رايات المبرزين، ص٨١، الحميري، الروض المعطار، ص٤٠، المقّري، أزهار الرياض، ٤٦/٢، نفح الطيب، ٦٤/٦.

(١٣) الاستقصا، ٣٣/٢، وانظر تاريخ ابن خلدون، ق١م٦/٣٨٢.

(١٤) الروض المعطار، ص٢٨٨-٢٨٩، وانظر أعمال الأعلام، ص٢٤٣، الاستقصا، ٣٩/٢، نفح الطيب، ١٢٩/٦.

(١٥) نفح الطيب، ١٢٤/٦.

(١٦) انظر الروض المعطار، ص٢٨٨، نفح الطيب، ١٢٩/٦.

(١٧) الروض المعطار، ص٢٨٨، أعمال الأعلام، ص٢٤٥، الحلل الموشية ص٤٥، الاستقصا، ٣٩/٢، نفح الطّيب، ١٢٨/٦.

(١٨) انظر أعمال الأعلام، ص١٥٩، ٢٤٥، تاريخ ابن خلدون، ق١م٦/٣٨٢-٣٨٣، الحلل الموشية ٤٢، الاستقصا، ٣٧/٢-٣٨، نفح الطيب، ٢٣/٦، ١٢٦/٦. ولمزيد من التفصيل انظر: التبيان، ص١٠٢-١٠٣، الكامل، ١٤٢/١٠-١٤٣، ١٥٢، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٤٤، الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٨٤/٣، النويري، نهاية الأرب، ٤٥٣/٢٣-٤٥٥.

(١٩) أعمال الأعلام، ص١٥٩.

(٢٠) الروض المعطار، ص٢٨٨، انظر الكامل، ١٤٢/١٠-١٤٣، الوافي، ١٨٤/٣، نهاية الأرب، ٤٥٥/١٣، نفح الطيب، ١٢٩/٦.

(٢١) الأنيس المطرب، ص١٤٤، وانظر الكامل، ١٥٢/١٠، نهاية الأرب، ٤٥٥/١٣، أعمال الأعلام، ١٥٩، ٢٤٥، تاريخ ابن خلدون، ق١م٦/٣٨٢-٣٨٣، الاستقصا، ٣٧/٢-٣٨، نفح الطيب، ٢٣/٦.

(٢٢) الأنيس المطرب، ص١٤٤، وانظر المعجب، ص١٣٠-١٣١.

(٢٣) الاستقصا، ٤٤/٢، وانظر الأنيس المطرب، ص١٤٦.

(٢٤) انظر عن الوقعة في: الكامل، ٤٥٥/١٠-٤٥٨، الروض المعطار، ٢٨٧-٢٩٢، الحلل الموشية ص٥٣-٦٦، الاستقصا، ٣٩/٢-٤٩، المعجب، ص١٣٢-١٣٥. واقعة الزلّاقة كما صوّرها الشعر الأندلسي، د. منجد مصطفى بهجت، مجلة آداب المستنصرية، العدد ٩، ١٤٠٤هجرية-١٩٨٤م، ص٤٢١-٤٥٣.

(٢٥) وتجدر الإشارة إلى أن أغلب المصادر أجمعت على أن وقعة الزلّاقة حدثت سنة ٤٧٩هجرية باستثناء كتاب المعجب الذي حدّد تاريخها سنة ٤٨٠هجرية، وابن الكردبوس في تاريخه ذكر أنها كانت سنة ٤٨١هجرية.(٢٦) التبيان، ص١٠٤.

(٢٦) المعجب، ص١٣٤-١٣٥.

(٢٧) قاسم غنيمات، صدى استغاثات الأندلسيين بالعالم الإسلامي بعد سقوط طليطلة، ص١٢٥.

(٢٨) المعجب، ص١٣٥.

(٢٩) انظر الأنيس المطرب، ١٥٢-١٥٣، أعمال الأعلام، ص٣٤٧، تاريخ ابن خلدون، ق١م٦/٣٨٤، الاستقصا، ٥١-٥٣، ٥٥.

(٣٠) انظر وفيات الأعيان، ١٢٨/٧، التبيان، ص١٦٩، تاريخ ابن خلدون، ق١م٦/٣٨٣-٣٨٤، المعجب، ص١٦٢-١٦٣، الاستقصا، ٥٥/٢.

(٣١) انظر التبيان، ص٢٣٥، أعمال الأعلام، ص٣٤٧، نفح الطيب، ٢٤/٦.

(٣٢) التبيان، ص١٦٩.

(٣٣) الاستقصا، ٥٥/٢، ٥٧، وانظر تاريخ ابن خلدون، ق١م٦/٣٨٤.

(٣٤) المعجب، ص١٣٢-١٣٣، ١٣٩، وانظر وفيات الأعيان، ١١٣/٥، ١٣٠، الوافي، ١٨٥/٣،

(٣٥) الاستقصا، ص٢/٥٧.

(٣٦) ابن الخطيب، الإحاطة، ٣٤٩/٤، وانظر وفيات الأعيان، ١١٣/٧، ١٢٠، ١٢٥، الكامل، ٤١٧/١٠، البيان المغرب، ٤٦/٤، الأنيس المطرب، ١٣٦-١٣٧، اليافعي، مرآة الجنان، ١٢٥/٣، الحلل الموشية، ص٨١-٨٢، الاستقصا، ٦٠/٢، نفح الطيب، ١٤٤/٦.

(٣٧) الأنيس المطرب، ص١٣٧، الحلل الموشية، ص٨٢، الاستقصا، ٦٠/٢.

(٣٨) المعجب، ١٣١-١٣٢.

(٣٩) انظر وفيات الأعيان، ١١٧/٧، الاستقصا، ٤٩/٢، نفح الطيب، ١٣٩/٦.

(٤٠) التبيان، ص١٠٦.

(٤١) انظر وفيات الأعيان، ١٢٢/٧، الاستقصا، ٥١/٢، نفح الطيب، ١٤٠/٦.

(٤٢) انظر التبيان، ص، الذخيرة، ق٢م٥٢/١، الضبّي، بغية الملتمس، ٦٤/١، ابن خاقان، قلائد العقيان، ١٤٨/١، ابن الصيرفي، المختار من شعر شعراء الأندلس، ٢٥، ابن الأبّار، الحلّة السيراء، ٦٥/٢، الكامل، ١٥٥/١٠، ١٨٧، ١٨٩-١٩٠، ١٩٣، وفيات الأعيان، ١٢٢/٧، ١٢٣، ١٢٨، الأنيس المطرب، ص١٥٤، ١٥٥، نهاية الأرب، ٢٤، ٢٦٩-٢٧٠، أعمال الأعلام، ص١٨٦، ٢٣٥، تاريخ ابن خلدون، ق١م٣٨٤/٦-٣٨٥، الاستقصا، ٥٥/٢-٥٦، نفح الطيب، ١٤٠/٦-١٤١، ٣٤٩-٣٥٢.

(٤٣) الاستقصا، ٥٦/٢، وانظر ٥٣/٢-٥٥، تاريخ ابن خلدون، ق١م٣٨٤/٦-٣٨٥.

(٤٤) الكامل، ١٩٣/١٠، وانظر نهاية الأرب، ٢٧٠/٢٤، أعمال الأعلام، ١٧٣، الحلل الموشية ص٧٤، ويذكر الناصريّ أنّ دولة بني هود لم تسقط بيد المرابطين لأنّ المستعين بن هود كان معتصماً بالنّصارى. انظر الاستقصا، ٥٦/٢.

(٤٥) انظر البيان المغرب، ٣٧/٤، أعمال الأعلام، ص ٢٠٤.

(٤٦) الحلل الموشية ص٤٥-٤٦، عبد الهادي التّازي، التاريخ الدّبلوماسي للمغرب، ص٥٣-٥٤.

(٤٧) أبو بكر محمد بن سليمان الكُلاعي الولبي المعروف بابن القصيرة. إشبيليّ الأصل، نشأ في دولة المعتضد بن عبّاد، ثمّ ألحقه الوزير ابن زيدون في جملة الكتّاب، ثمّ أضحى وزيرً في دولة المعتمد، فلقّب بذي الوزارتين. ضمّه الأمير يوسف إلى كتّابه بعد أن خلع ملوك الطّوائف. انظر الذّخيرة، ق١م٢٣٩/٢-٢٤. شوقي ضيف، عصر الدّول والإمارات، ص٤٠٥.

(٤٨) الذّخيرة، ق٢م١/ ٥٤٧.

(٤٩) المصدر نفيه، ق٢م٢٤٥/١.

(٥٠) الوزير الكاتب أبو عبدالله محمّد بن أيمن، أحد كتّاب المتوكّل بن الأفطس ووزرائه، صاحب بطليوس. انظرترجمته وبعض ترسُّله في الذّخيرة، ق٢م٦٥٢/٢ وما بعدها.

(٥١) مجهول، الحلل الموشية، ص٣٥.

(٥٢) عبدالله عنان، عصر المرابطين، ٥٣١/١، محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية، ص٢٨٩.
(٥٣) دول الطّوائف، ص٤٤٦.
(٥٤) أبوبكر محمد بن ذي الوزارتين، أبو مروان بن بن عبد العزيز. انظر ترجمته في الذّخيرة ق٢م٥٤٣/٢الذخيرة، ق٢م٥٤٦/٢ -٥٤٧.
(٥٥) وفيات الأعيان، ١١٦/٧.
(٥٦) الروض المعطار، ص٢٨٨، نفح الطيب، ١٢٨/٦.
(٥٧) الذخيرة، ق٢م٥٤٥/٢ -٥٤٦.
(٥٨) المصدر نفسه، ق٢م٥٤٦/٢.
(٥٩) أبو عبد الرحمن محمّد بن أحمد بن طاهر، من بيت ثراء وشرف في مدينة مرسية. انظر تجته في الذّخيرة، ق٣م٢/ص٢٤ -١٠٣، عصر الدول والإمارات " الأندلس "، ص٤٣٩ -٤٤١.
(٦٠) الذخيرة، ق٣م٨٨/١ -٨٩.
(٦١) دول الطوائف، ص٤٥٢.
(٦٢) سيأتي الحديث عن ذلك تحت عنوان " صفات ابن تاشفين ".
(٦٣) الحلل الموشية، ص٤٦.
(٦٤) التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ص٥٤.
(٦٥) الذخيرة، ق٢م٢٤٢/١.
(٦٦) الذخيرة، ق٢م٦٥٥/٢، وانظر الحلل الموشية، ص ٣٥.
(٦٧) انظر ص١٦ من هذا البحث.
(٦٨) انظر ص١٦ من هذا البحث.
(٦٩) انظر ص ١٣، ١٤، ١٦ من هذا البحث.
(٧٠) الحلل الموشية، ص٣٧، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ص٥٣.
(٧١) عصر المرابطين، ٥٣٠/١، الوثائق السياسية، ص٢٨٨. لمزيد من الأمثلة انظر الأنيس المطرب، ص١٥١، دول الطوائف، ص٤٥٢.
(٧٢) الحلل الموشية، ص٢٩، وانظر ص٣١ -٣٢، إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ص٢٠١، الوثائق السياسية، ص ٢٧١ -٢٧٢.
(٧٣) دول الطوائف، ص٤٤٧.
(٧٤) انظر ص١٦ من هذا البحث.
(٧٥) عصر المرابطين، ٥٣٢/١، الوثائق السياسية، ص٢٩٥.
(٧٦) عصر المرابطين، ٥٣٠/١ -٥٣١، الوثائق السياسية، ص٢٨٨ -٢٨٩.

(٧٧) الذخيرة، ق٢م١/٢٥٥.

(٧٨) عصر المرابطين، ٥٣١/١، الوثائق السياسية، ص٢٩٨ -٢٩٠.

(٧٩) الذخيرة، ق٢م٢/٥٤٧.

(٨٠) الأنيس المطرب، ص١٣٧، الحلل الموشية ص٥٣، دول الطوائف، ص٤٥١.

(٨١) انظر الرسالة في الإحاطة، ٣٥١/٤، الحلل الموشية ص٤٢ -٤٣، نفح الطيب، ١٣١/٦.

(٨٢) وفيات الأعيان، ١١٦/٧، الحلل الموشية ص٤٣، نفح الطيب، ١٣١/٦، الاستقصا، ٤١/٢.

(٨٣) الإحاطة، ٣٥١/٤، الكامل، ١٥٢/١٠، وفيات الأعيان، ٢٩/٥، نهاية الأرب، ٤٥٦/٢٣، الوافي، ١٨٤/٣، الحلل الموشية ص٥٣، نفح الطيب، ١٣١/٦، الاستقصا، ٤١/٢.

(٨٤) دول الطوائف، ٤٤٦ -٤٤٧.

(٨٥) الذخيرة، ق٢م١/٢٥٩.

(٨٦) من اهل اجزيرة الخضراء، كان كاتباً ثرثاراً، أديباً لوذَعيّاً، كثير النّظم والنّثر، كتب عن أمير المسلمين". الإحاطة، ٤٠١/٤.

(٨٩) الإحاطة، ٤٠٣/٤.

(٩٠) الأنيس المطرب، ١٥١، دول الطوائف، ص٤٥٢.

(٩١) الذخيرة، ق٢م١، ٢٤١ -٢٤٢.

(٩٢) دول الطوائف، ص٤٥٠.

(٩٣) انتقل مع والده من القيروان إلى الأندلس، ثمّ استقرّ بالمريّة، وانضمّ إلى زمرة الأطبّاء بعد أن ترك نظم الشّعر، وهو ذو جاه وثراء، توفي سنة ٥٣٤ هجرية. انظر الذخيرة، ق٣م٢/٨٦٧ -٨٦٩.

(٩٤) الذخيرة، ق٣م٢/٨٦٩.

(٩٥) الذخيرة، ق٣م٢/٨٦٨، وتتجلى مثل هذه المعاني في الرسالة التي كتبها عبد الرحمن بن طاهر عقب فتح بلنسية. انظر المصدر السابق، ق٣م١/١٠١ ولمزيد من الأمثلة انظر الذخيرة، ق١م٣/١٠١ -١٠٢، م١ق٢/٢٥٥، ٢٦٣، الأنيس المطرب، ص١٥٠ -١٥١، دول الطوائف، ٤٤٦ -٤٥٢.

(٩٦) الإحاطة، ٤٠٣/٤.

(٩٧) الكامل، ٤١٧/١٠، وانظر وفيات الأعيان، ١٢٥/٧، الاستقصا، ٥٧/٢ -٥٨.

(٩٨) الكامل، ٤١٧/١٠، وانظر وفيات الأعيان، ١٢٥/٧، الاستقصا، ٥٧/٢.

(٩٩) البيان المغرب، ٤٦/٤، وانظر الكامل، ٤١٧/١٠.

(١٠٠) ترجمة الكاتب محمد بن عبد الغفور في قلائد العقيان، ص١٨٢. رسالته في الحلل الموشية، ص٧٨ -٧٩.

(١٠١) بمعنى اختار.

(١٠٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٦٥/١٠-١٦٦، وانظر الحلل الموشية، ص٦٣.
(١٠٣) صبح الأعشى، ١٦٦/١٠.
(١٠٤) المصدر نفسه، ١٦٦/١٠.
(١٠٥) ترجمته في الصلّة، ص٤٣٩-٤٤٠.
(١٠٦) الذخيرة، ق٢م٢٦١/١.
(١٠٧) المصدر نفسه، ق٢م٢٦١/١.
(١٠٨) المصدر نفسه، ق٢م٢٦١/١-٢٦٢.
(١٠٩) الفتح بن خاقان، قلائد العقيان، ٣٠٨/١.
(١١٠) المصدر نفسه، ٣٠٨/١.
(١١١) المصدر نفسه، ٣٠٨/١-٣٠٩.
(١١٢) المصدر نفسه، ٣٠٦/١-٣٠٨.
(١١٣) المصدر نفسه، ٣١٢/١.
(١١٤) المصدر نفسه، ٣١٢/١-٣١٣.
(١١٥) الذخيرة، ق٢م٢٥٧/١-٢٥٨، قلائد، ٣١٠/١، الخريدة، ٢٤٥/٢.
(١١٦) المصادر نفسها على التوالي: ق٢م٢٥٩/١، ٣١١/١، ٢٤٥/٢.
(١١٧) الذخيرة، ق٢م٢٦٠/١. المصدر نفسه، ق٢م٢٦٠/١.
(١١٨) عصر المرابطين، ٤٢/١.
(١١٩) عصر المرابطين، ٥٣١/١، الوثائق السياسيّة، ص٢٩٠.
(١٢٠) المصدر نفسه، ٤٢/١، المصدر نفسه، ص٢٨٧.
(١٢١) المصدر نفسه، ٤٢/١-٤٣، المصدر نفسه، ص٢٨٧-٢٨٨.
(١٢٢) المصدر نفسه، ٤٣/١، المصدر نفسه، ص٢٨٨.
(١٢٣) انظر ذلك في موضوع " جهاد ابن تاشفين ".
(١٢٤) انظر تحت عنوان " دواعي الاستنجاد بابن تاشفين ".
(١٢٥) الذخيرة، ق١م٢٦٣/٢.
(١٢٦) لعله أبو بكر عيسى بن الوكيل اليابري، الذي عاش إلى أيّام دولة المرابطين، واستعمل على الكتابة فيغرناطة. انظر الذّخيرة ق٢م٢٦٤/١، حاشية رقم ٣.
(١٢٧) انظر الرسالة في اتلذخيرة، ق١م٢٦٥/٢.
(١٢٨) وفيات الأعيان، ١١٤/٧، نفح الطيب، ١٢٣/٦-١٢٤.
(١٢٩) البيان المغرب، ١١٢/٤-١١٣، وفيات الأعيان، ١١٥/٧، نفح الطيب، ١٢٥/٦.

(١٣٠) دول الطوائف، ص٤٥٨.
(١٣١) المرجع نفسه، ص٤٤٨.
(١٣٢) انظر وفيات الأعيان، ١٢٢/٧، الاستقصا، ٥١/٢، نفح الطيب، ١٤٠/٦.
(١٣٣) انظر ص ٥ من هذا البحث، أعمال الأعلام، ص١٧٣.
(١٣٤) أعمال الأعلام، ص١٧٣، الحلل الموشية، ص٧٥.
(١٣٥) المصدر نفسه، ص١٧٣-١٧٤، المصدر نفسه، ص٧٥.
(١٣٦) التّبيان، ص١٢٧.
(١٣٧) المصدر نفسه، ص٤٧.
(١٣٨) المصدر نفسه، ص٤٧.
(١٣٩) المصدر نفسه، ص١٤٩.
(١٤٠) المصدر نفسه، ص١٦١.
(١٤١) المصدر نفسه، ص١٦١.
(١٤٢) عصر المرابطين، ٥٣٢/١، الوثائق السّياسيّة، ص٢٩٠.
(١٤٣) انظر ما ورد تحت عنوان " جيش ابن تاشفين ".، وانظر الكامل، ١٥٥/١٠.
(١٤٤) هو أمين الدّين أبو سعيد العلاء بن وهب بن موصَلايا. انظرصبح الأعشى، ٣٠/١٠.
(١٤٥) المصدر نفسه، ٣٠/١٠-٣١.
(١٤٦) هي الشرطة غير الرّسمية، وكانت تُستعمل في الشّام بخاصّة. انظر التّعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص١٦.
(١٤٧) صبح الأعشى، ٣١/١٠.
(١٤٨) انظر صبح الأعشى، ٣١/١٠-٤٤.
(١٤٩) وفيات الأعيان، ١٢٥/٧، وانظر الكامل، ٤١٧/١٠، البيان المغرب، ٤٦/٤ الحلل الموشية ص٨٢، الاستقصا، ٥١/٢-٥٨.
(١٥٠) وفيات الأعيان، ١٢٥/٧.
(١٥١) انظر تفصيل ذلك تحت عنوان " شرعيّة حكمه ".
(١٥٢) عصر المرابطين، ٥٣٢/١، الوثائق السّياسيّة، ص٢٩٠.
(١٥٣) المرجع نفسه، ٥٣٢/١-٥٣٣، المرجع نفسه، ص٢٩١.
(١٥٤) في الاستقصا، ٥٩/٢، أبو عبد الله محمد بن يحيى المعروف بالبراء.
(١٥٥) وفيات الأعيان، ١١٩/٧، الاستقصا، ٥٩/٢.
(١٥٦) الكامل، ١٧٨/١٠-١٧٩، وانظر نهاية الأرب، ٢٧١/٢٤-٢٧٢.

(١٥٧) المصدر نفسه، ١٧٩/١٠، المصدر نفسه، ٢٧٢/٢٤.
(١٥٨) المصدر نفسه، ١٧٩/١٠، المصدر نفسه، ٢٧٢/٢٤.
(١٥٩) انظر الأنيس المطرب، ص١٥٠-١٥١، دول الطّوائف، ص٤٥٢.
(١٦٠) الذخيرة، ق٢م٢٤٤/١.
(١٦١) الإحاطة، ٤٠٣/٤-٤٠٤.
(١٦٢) دول الطوائف، ص٤٤٦.
(١٦٣) المصدر نفسه، ص٤٤٧.
(١٦٤) المصدر نفسه، ص٤٥٥.
(١٦٥) المصدر نفسه، ص٤٤٩.
(١٦٦) المصدر نفسه، ص٤٤٩-٤٥٠.
(١٦٧) المصدر نفسه، ص٤٤٩-٤٥٠.

المصادر والمراجع

المصادر

- ابن الآبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي، ت٦٥٨هـ، كتاب الحلة السيّراء، حققه وعلق حواشيه، د. حسين مؤنس، دار المعارف، مصر.
- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، الكامل في التاريخ، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.
- ابن بسام الشنتريني، أبو الحسن علي، ت ٥٤٢هـ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان.
- الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، حققه: د. إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت.
- ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي، ت ٥٢٩هـ، قلائد العقيان، حققه وعلق عليه: د. حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، ط١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، ٧٣٢هـ - ٨٠٨هـ، (١٩٦٨م). تاريخ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن والاهم من ذوي السلطان الأكبر، ط٣، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، ت ٦٨١هـ، وفيات الأعيان، حققه: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
- ابن سعيد المغربي، نور الدين أبو الحسن علي بن موسى، ٦١٠هـ - ٦٨٥هـ، (١٩٨٣م). رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق: عبد المتعال القاضي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.
- ابن سعيد المغربي، نور الدين أبو الحسن علي بن موسى، ٦١٠هـ - ٦٨٥هـ. المُغرب في حلى المغرب، وضع حواشيه: خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، ٦٩٦هـ - ٧٦٤هـ، (١٩٩١م). الوافي بالوافيات، الجزء الثالث، اعتناء: س. دريد رينغ، دار النشر فرانز شتاينر، شتاتغورت، ١٤١١هـ -
- ابن الصيرفي، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م). المختار من شعر شعراء الأندلس، تحقيق:د.عبد الرزاق حسين، ط١. دار البشير، عمان.
- الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميره، ت ٥٩٩هـ، (١٩٨٩م). بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة.
- القلقشندي، أحمد بن علي، ت٨٢١هـ، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م). صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.
- عبدالله بن بلقّين، مذكرات الأمير عبدالله بن بلقّين المسمى كتاب التبيان، تحقيق: أ. ليفي بروفنسال، دار المعارف، مصر.

- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبطه وصححه وعلق حواشيه وأنشأ مقدمته: محمد سعيد العريان، محمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة.
- ابن عذارى المراكشي، (١٩٨٣م). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: إحسان عباس، ط٣. دار الثقافة، بيروت.
- علي ابن أبي زرع الفاسي، (١٩٧٢م). الأنيس المطرب المعروف بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط.
- لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- لسان الدين ابن الخطيب، تاريخ إسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام، تحقيق وتعليق: أ. ليفي بروفنسال، دار المكشوف.
- مجهول، عاش في القرن الثامن الهجري، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكّار، وعبد القادر زمامه، ط١، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء.
- المقري، أحمد بن محمد التلمساني، ت ١٠٤١هـ، (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له: د. مريم قاسم الطويل، و د. يوسف علي طويل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
- الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، (١٩٥٤م). الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق: ولدا المؤلف الأستاذ جعفر الناصري والأستاذ محمد الناصري، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت ٧٣٣هـ، (١٩٨٠م). .نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الثالث والعشرون، تحقيق: د. أحمد كمال زكي، مراجعة: د. محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- اليافعي، أبو محمد عبدالله بن أسعد اليمني المكيّ، ت٧٦٨هـ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، وضع حواشيه: خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

المراجع

- إبراهيم حركات، (١٩٨٤م). المغرب عبر التاريخ، ط٢. دار الرشاد الحديثة. الدار البيضاء.
- شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات "الأندلس"، ط٣. دار المعارف، مصر.
- عبد الهادي التازي، (١٩٨٧م). التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، مطابع فضالة المحمدية.
- محمد عبد الله عنان، (١٩٦٠م). دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة.
- محمد عبد الله عنان، (١٩٦٤م). عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة .
- محمد ماهر حمادة، (١٩٨٠م). الوثائق السياسية والإدارية، الأندلس وشمال أفريقيا، منشورات مؤسسة الرسالة، بيروت.

الرسائل الجامعية

- قاسم محمد مزعل غنيمات، (١٩٩٧م). "صدى استغاثات الأندلسيين في العالم الإسلامي بعد سقوط طليطلة، ٤٧٨هـ - ١٠٨٥م"، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية.

الدوريات

- د. منجد مصطفى بهجت، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م). "واقعة الزلاقة كما صورها الشعر الأندلسي، مجلة آداب المستنصرية، ع٩.